

تهافت الشهوات

سعيد بن محمد آل ثابت

<http://saaid.net/Doat/thabit/index.htm>

تويتر : althabit@

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله،

تعدد مظاهر كل عصر إيجاباً وسلباً، بعضها يُفرح والآخر يُبكي.

وأجدني مع غيري فيمن رأى ضراوة الشهوات التي فتكت بالبشرية، ونكست الكرامة المعطاة إلى حيوانية بهيمية، ولازال الغرب يعتد بحريته التي دهمت قيم الإنسانية فضلاً عن الإسلام في إدخال كافة أنواع الفواحش والمنكرات.

ولعلي أن أهمس هنا في أذن من أراد الفكاك من قيد الشهوات شيئاً من المنهجية الإسلامية التربوية، وكلنا ذلك المبتلى التي تحفه الشهوات من كل مكان، وأيضاً لذلك المرابي والداعية القدير سأقترح بعضاً من المقومات والوسائل لمجابهة هذا الصراع ومقاومة هذا التيار. وقد صغتُ المبحث بطريقة أكثر سلاسة ويسراً، واجتهدت في تقسيم مناسب ليسهل تشجيره وحفظه والعمل به، وليس هذا الجهد إلا بتوفيق الله ثم المنهج الرباني الواضح، وقد سُبقت بلا شك لهذا الموضوع من علماء أكابر ومربين عظام من السلف والخلف، ولعل هذا الجهد الميسر أن يصطف مع تلك الجهود العظمى لتعطي منظومة تربوية تسيّر عبر الزمان للجيل الإسلامي.

إننا نعيش في دوامة الشهوات القاتلة، وحين أطلق هذا المصطلح فإنني أعني شهوة الفرج، وإلا فشهوة المرء كثيرة، فهو بين شهوات العجب والمال، وغيرها. وأبدأ مستعيناً بالله، مؤكداً أن مدمرتا الدين: الشبهات والشهوات، وبأيهما قد يُصرع المرء..

١. إن موضوع الشهوات ليس حادث الوقت، بل هو أزلي منذ قامت البشرية، وقد اهتم الوحي به حيث تناول قصة يوسف عليه السلام، وأنزلت سورة كاملة (النور) بهذا الصدد، وكثير من النصوص احتوت التوجيهات الوقائية والعلاجية لهذه الفتنة، وهنا ندرك أهمية تناول هذا الموضوع بشيء من الجدة حتى ندرك أنفسنا ومن نحب. قال تعالى: "قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَّنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ" الأعراف: ٣٣، وعن عبد الله بن مسعود قال، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (لا أحد أغير من الله، فلذلك حرم الفواحش ما ظهر منها وما بطن، ولا أحد أحب إليه المدح من الله) رواه أحمد والشيخان. وفي الحديث: "فانطلقنا إلى ثقب مثل التنور أعلاه ضيق وأسفله واسع يتوقد تحته ناراً، فإذا اقترب ارتفعوا حتى كاد أن يخرجوا، فإذا خمدت رجعوا فيها وفيها رجال ونساء عراة"^١. والحديث طويل اقتصرنا منه على موضع الشاهد. قال تعالى: "وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا" الفرقان: ٦٨-٦٩.

لقد ساهم الانفتاح وخاصة الإعلامي في توسيع دائرة المفتونين والمصابين بهذا الداء، وخاصة حين صار الوصول للفاحشة ميسر عبر الأدوات التي في متناول الجميع، والتلفهف الفطري الكامن في الذات البشرية تجاه الشهوة إضافة إلى سوء التربية والتنشئة الإيمانية التي تغرس الرقابة والمسؤولية الفردية، وهذا يُضاف مع ضعف دور التعليم والبيئات التربوية في تعزيز الجانب الرقابي وتعظيم محارم الله، وإننا إذ نجد من احتواء غالبية الشباب لهذه المقاطع لهو أمر جلل، وقد أخبرني أحد رجالات الهيئة أنهم وجدوا مع أحدهم أكثر من أربعين ألف مقطع إباحي في جهازه. بل يزيد الأمر ضراوة كثرة البرامج التي تكسر حاجز الحماية، وغيرها من برامج المحادثات التي سهلت عملية الفاحشة وتجسير الطريق

^١ رواه البخاري (١٣٦٨).

لها. ويؤيد ذلك الإحصائية الأخيرة التي ذكرت بأن كلمة (سكس) تكررت أكثر من مليون مرة في تويتر خلال سنة، والسعودية بالمرتبة الأولى بنسبة ٨٠% تقريباً عن باقي الدول.^٢

(إن سعار الشهوات سياسة غربية وهمجية ضارية)^٣، هدفها تميع المعاني الدينية، وهدم صروح الإيمان في قلوب المسلمين لغاية الإطاحة بالمجتمع وقيمه المثلى، وكيف لا وثورة تفويج الزنا بكل قوالبه والفاحشة بشكل عام قائمة على قدم وساق من الغرب المنحل، حتى سمعنا بتطبيع زنا المحارم -عافانا الله- والمثلية الجنسية وتزويج الجنس الواحد بمثله وغيرها من زبالات الغرب.

لقد ذكرت وزارة العدل الأمريكية في دراسة لها^٤ أن تجارة الدعارة والإباحية الخلقية تجارة رائجة جدا يبلغ رأس مالها ثمانية مليار دولارا ولها أواصر وثيقة تربطها بالجريمة المنظمة. وإن تجارة الدعارة هذه تشمل وسائل عديدة كالكتب والمجلات وأشرطة الفيديو والقنوات الفضائية الإباحية والإنترنت. وتفيد الإحصاءات الاستخبارات الأمريكية (FBI) أن تجارة الدعارة هي ثالث أكبر مصدر دخل للجريمة المنظمة بعد المخدرات والقمار^٥ حيث إن بأيديهم ٨٥% من أرباح المجلات والأفلام الإباحية^٦.

وهناك في الوقت الحاضر في أمريكا وحدها أكثر من ٩٠٠ دار سينما متخصصة بالأفلام الإباحية وأكثر من ١٥٠٠٠ مكتبة ومحل فيديو تتاجر بأفلام ومجلات إباحية. وهذا العدد يفوق حتى عدد مطاعم ماكدونالد بنسبة ثلاثة أضعاف^٧. ولقد كانت أمريكا في الماضي تحارب إلى درجة كبيرة انتشار الإباحية في مجتمعها بفرض بعض الأنظمة والقوانين، ولكن من الملاحظ في هذا العصر أن المعارضين لانتشار الإباحية بدعوا يخسرون هذه الحرب حيث نجحت الاستوديوهات بتخفيف المراقبة على الأفلام وتغيير مفهوم الإباحية لدى المقيمين فأصبحت الأفلام التي كانت لتندرج تحت بند الأفلام الإباحية (X) قبل قرن يعاد تقييمها اليوم وإدراجها تحت بند (R) الأخف. كما تم إنشاء فئات أخرى بينية كفئة (NC-17) للهدف نفسه. ولقد تم بنجاح مؤخرا في أمريكا قلب وإلغاء قانون "العفة في الاتصالات" (Communications Decency Act of 1996) ليتمكن الناس من الاستمرار في أعمال الإباحية دون أي قيود قانونية.

ومن المعلوم أن أمريكا هي أولى دول العالم في إنتاج المواد الإباحية. فهي تصدر سنويا ١٥٠ مجلة من هذه النوع أو ٨٠٠٠ عددا سنويا^٨. وتجارة تأجير الأفلام الإباحية قد زادت من ٧٥ مليون سنة ١٩٨٥ إلى ٦٦٥ مليون سنة ١٩٩٦.

ولقد عرف أهل هذه التجارة في السابق أن هنالك فئة من الناس قد تطاوعهم نفوسهم الخوض في هذه الأمور لولا خوف العار من أن يراهم الناس وهم يدخلون أمثال هذه المتاجر أو دور السينما. لذا أخذوا في تسهيل هذه الأمور قدر المستطاع كالسماح للناس باقتناء هذه المواد عن طريق البريد. واستكمالا لهذه الجهود (وبعد ضغوط من الحكومة) قاموا بتغليف هذه المواد بورق بني (plain brown wrapper) يخفي محتوياتها قبل الإرسال. ومع ذلك أصبح الناس يعرفون محتويات أمثال هذه الرسائل فكان ذلك رادعا للبعض ممن لازالت فطرته سليمة ويخشى العار.

^٢ ضمن إحصائيات نشرها عبد العزيز الشعلان في حسابه بتويتر @Azizshalan مطلع عام ٢٠١٣م.
^٣ "الإسلام الذي يريده الغرب" لصالح الغامدي.

^٤ Report of the Attorney General's Task Force on Family Violence, U.S. Department of Justice, Washington, D.C.

^٥ Federal Bureau of Investigation, reported in "Talking Points: Important Facts About Pornography, Take Action Manual, National Coalition for the Protection of Children and Families, p. 8

^٦ American Family Association, "Outreach: Facts About Pornography,"

^٧ "Effect of Pornography on Women and Children," U.S. Senate Judiciary Committee, Subcommittee on Juvenile Justice, 98th Congress, 2nd Session, 1984

^٨ Schlosser, Eric, "Business of Pornography," U.S. News & World Report, February 10, 1997

لاحظ تجار الدعارة هذه العوامل فأصبح من اللازم إيجاد طرقا لتوصيل هذه المواد إلى منازل الناس بطريقة مباشرة وخفية. ومن هذا المنطلق تم الاستفادة من البث المباشر والهاتف وشبكة الإنترنت. وقد تمثل شبكة الإنترنت في الوقت الحاضر أكثر هذه الطرق نجاحا في هذا الصدد حيث إن صفحات النسيج العالمي المتعلقة بالدعارة تمثل - بلا منافس - أشد الصفحات إقبالا في كل العالم.

والمصيبة هنا محاولة تصدير هذا الفكر الإباحي بدعوى الحرية للبلاد الإسلامية والمجتمعات المحافظة، والغرب بقيمهم الفاسدة وأمراضهم الخبيثة ومبادئهم الذميمة لم يكتفوا بإفشاء الرذائل والمنكرات ودواعي غضب الجبار بينهم ولكن تمادى بهم الحال إلى محاولة تصدير هذه المصائب والأمراض إلى دول الإسلام. فنجد جمعية "مراقبة حقوق الإنسان" (Human Rights Watch) مثلا تدم وتتكبر بشدة أي محاولات لدول الخليج العربي لحجب الإباحية ويدعوننا إلى "الانفتاح والحرية"⁹.

إن حجم الإقبال على شبكة الإنترنت يتضاعف تقريبا كل مائة يوم¹⁰. حيث صرحت وزارة التجارة الأمريكية بأن عدد الصفحات في النسيج العالمي بلغ ٢٠٠ مليون صفحة في نهاية عام ١٩٩٧ و ٤٤٠ مليون صفحة في نهاية عام ١٩٩٨ وأن عدد رواد النسيج بلغوا ١٤٠ مليون في عام ١٩٩٨م¹¹. ولقد أقر هذا العدد شركة جنيرال ماجيك¹² ومجلة تايم¹³. ولكن هنالك من يرى أن هذا العدد فيه تحفظ وأن العدد الحقيقي للصفحات في عام ١٩٩٨ قد بلغ ٦٥٠ مليون صفحة¹⁴. ويتوقع لهذا العدد أن يزداد إلى ٨ مليار في عام ٢٠٠٢م. وعدد الصفحات الإباحية في الإنترنت تقدر بنحو ٢.٣% من حجم الصفحات الكلية في الإنترنت¹⁵. وهذا العدد يعد صغيرا نسبيا إلا أنه لا يعطي الصورة الحقيقية لحجم المشكلة.

وكمثال على ذلك يمكن أن يكون في مدينة واحدة مائة سوق ولكن أكثر الناس مقبلون على سوق واحد بين هذه المائة. وبالفعل نجد الأرقام تعضد هذه النظرية. فشركة (Playboy) الإباحية مثلا تزعم بأن ٤.٧ مليون زائر يزور صفحاتهم في الأسبوع الواحد¹⁶. وقامت بعض الشركات بدراسة عدد الزوار لصفحات الدعارة والإباحية في الإنترنت فوجدت شركة (WebSide Story) أن بعض هذه الصفحات الإباحية يزورها ٢٨٠٠٣٤ زائر في اليوم الواحد وهنالك أكثر من مائة صفحة مشابهة تستقبل أكثر من ٢٠٠٠٠ زائر يوميا وأكثر من ٢٠٠٠ صفحة مشابهة تستقبل أكثر من ١٤٠٠ زائر يوميا. وإن صفحة واحدة فقط من هذه الصفحات قد استقبلت خلال سنتين ٤٣٦١٣٥٠٨ زائر. وإن واحدة من هذه الجهات تزعم أن لديها أكثر من ثلاثمائة ألف صورة خليعة تم توزيعها أكثر من مليار مرة. ولقد قام باحثون في جامعة كارنيجي ميلون بإجراء دراسة إحصائية على ٩١٧٤١٠ صورة استرجعت ٨.٥ مليون مرة من ٢٠٠٠ مدينة في ٤٠ دولة فوجدوا أن نصف الصور المستعادة من الإنترنت هي صور إباحية وأن ٨٣.٥% من الصور المتداولة في المجموعات الأخبارية¹⁷ هي صور إباحية¹⁸.

⁹ <http://www.hrw.org/advocacy/internet/mena/>

¹⁰ Trainer Wortham, News and Noteworthy Market Commentary, Fourth Quarter 1999.

¹¹ U.S. Commerce Department

¹² O'Neill, Edward, Characteristics of Web Accessible Information, IFLA JOURNAL 24 (1998), p.114-116, 1998

¹³ Rutkowski, Tony. "Internet Trends", General Magic, February 1997. www.genmagic.com/Internet/Trends (5- 14- 97)

¹⁴ Wright, Robert. "The Man Who Invented the Web". Time 149(20): 64- 68(19 May 1997)

¹⁵ Gray, Matthew. "Web Growth Data", 19 March 1997.

¹⁶ The Web Characterization Project, <http://wcp.oclc.org/stats.htm>

¹⁷ G.A. Servi, 'Sexy F Seeks Hot M': A Mother's Tale Discovering a Child's X-Rated E-Mail, Newsweek, July 3, 1995, 51

¹⁸ There are about 14,000 Usenet newsgroups around the world today.

وفي عملية إحصاء أجرتها مؤسسة زوجي (Zogby) في مارس عام ٢٠٠٠ وجد أن أكثر من ٢٠% من سكان أمريكا يزورون الصفحات الإباحية. ويقول الباحث ستيف واترز^{٢٠} أنه غالباً ما تبدأ هذه العملية بفضول بريء ثم تتطور بعد ذلك إلى إدمان مع عواقب وخيمة كإفساد العلاقات الزوجية أو تبعات شر من ذلك.

وقد وجد التجار صعوبة فائقة في جمع الأموال عن طريق صفحات النسيج العالمي إلا في شريحة واحدة وهي شريحة صفحات الدعارة فإنها تجارة مربحة جداً^{٢١} ويقبل الناس عليها بكثرة ولو اضطروا لدفع الأموال الطائلة مقابل الحصول على هذه الخدمة. وفي سنة ١٩٩٩ بلغت مجموعة مشتريات مواد الدعارة في الإنترنت ٨% من التجارة الإلكترونية والبالغ دخلها ١٨ مليار دولارا كما بلغت مجموعة الأموال المنفقة على الدخول على الصفحات الإباحية ٩٧٠ مليون دولارا ويتوقع أن ترتفع إلى ٣ مليار دولارا في عام ٢٠٠٣^{٢٢}. وهذه الصفحات تتكاثر بشكل مهول تبلغ مئات الصفحات الإباحية الجديدة في الأسبوع الواحد، كثير منها تؤمن هذه الخدمة مجاناً.

ولقد صرحت وزارة العدل الأمريكية قائلة: "لم يسبق في فترة من تاريخ وسائل الإعلام بأمريكا أن تفتشت مثل هذا العدد الهائل الحالي من مواد الدعارة أمام هذه الكثرة من الأطفال في هذه الكثرة من البيوت من غير أي قيود"^{٢٣}.

كما تفيد الإحصاءات بأن ٦٣% من المراهقين الذين يرتادون صفحات وصور الدعارة لا يدري أولياء أمورهم طبيعة ما يتصفحونه على الإنترنت^{٢٤} علماً بأن الدراسات تفيد أن أكثر مستخدمي المواد الإباحية تتراوح أعمارهم ما بين ١٢ و ١٧ سنة^{٢٥}. والصفحات الإباحية تمثل بلا منازع أكثر فئات صفحات الإنترنت بحثاً وطلباً^{٢٦}.

والدعوة لتطبيع الشهوانية الحيوانية أمر انتهى عنه الأديان السماوية والأخلاق السوية وهو مخالف للفطرة السوية الصحيحة، ولكن أبواق الغرب (ليبرالية المجتمع) يدعون فطريته وينادون بتطبيعها للحرية المزعومة وحقيقة هذا الصراع هو (صراع بين حياة الحيوان البهيمي وحياة الحيوان الإنساني، فهو صراع فطري صحيح مع فطرة مبدلة قبل أن يكون صراعاً على شرائع الإسلام وأحكامه الخاصة به دون شرائع السماء الأخرى)^{٢٧}.

ويزيد النار إضراراً هو الانبهار الذي أصاب بعض المسلمين من حضارة الغرب وهذا له أسباب عديدة منها^{٢٨}:

١. الغزو الثقافي المسلح بأسلحة التكنولوجيا الحديثة.
٢. التباهي بالحضارة الغربية والافتتان بجميع مظاهرها نتيجة التخلف الحضاري السائد في المجتمعات الإسلامية.

¹⁹ Rimm, Marty, Marketing Pornography on the Information Superhighway, Georgetown Law Journal, Issue 5, Volume 83

²⁰ Steve Watters, an Internet research analyst at Focus on the Family

²¹ C-Net; 4/28/99

²² U.S. News & World Report, 3/27/2000

²³ (ثابت، ١٤٣٤) of Justice Post Hearing Memorandum of Points and Authorities, at 1, ACLU vs. Reno, U.S. Department (1996) 929

²⁴ Yankelovich Partners Study, September 1999

²⁵ Attorney General's Commission of Pornography, 1986

²⁶ Dr. Robert Weiss, Sexual Recovery Institute, Washington Times 1/26/2000

²⁷ "العقلية الليبرالية" لعبد العزيز الطريفي.

²⁸ "مناخ مشكلات الأمة الإسلامية والعالم المعاصر" لمقداد يالجن، ص ٣٧ ص ٣٨.

٣. عدم وجود مقاومة وحصانة متينة ضد ذلك الغزو، وهذا راجع إلى الإعداد الثقافي الإسلامي غير الكافي لأبناء الأمة.

ومن الخطورة بمكان أن بعض أبناء الأمة لم يكتفوا بالتأثر بتلك الثقافات، بل أصبحوا جنوداً مخلصين لها في ديارنا. ويعملون لتقويض دعائم عقيدتنا وقيمنا وثقافتنا العريقة والأصيلة باستعارة المناهج الغربية قلباً وقالباً وتطبيقها على أبناء المسلمين. قال أحد الرؤساء بمناسبة الحديث عن الصحوة الإسلامية وخطرها على الدولة "بأن الجيل الذي يتربى على الهوية الغربية لا ينتظر منه أن يعود إلى تقبل الشريعة الإسلامية"^{٢٩}.

إذاً حجم الكارثة ضخم، وستكون تبعاته وخيمة إذا لم يقابلها الجهد المؤسسي المتكامل الذي يشمل كل من له علاقة، لصد هذا السيل الهدار الذي هدم الأخضر واليابس، ويهدف لتقويض الإسلام برمته.

الشهوات عدو لم يعد متربصاً، بل هو الآن يدخل بخيله ورجله، حطم جحافل الإيمان في القلوب، وأدمى المهج، وأعمى الأبصار، وشتت الأسر، وجعل الله أهون الناظرين.

وإننا نؤكد أننا لا نريد أن نتعاطى مع هذا الموضوع بوحشية كاسرة ضد المقترفين والمصابين؛ لأنني جازم أننا بهذا الأسلوب لن ننجو بأحد مع كثرة الغرقى والساقطين؛ لذا لا بد أن نعيش الواقع وألا نمارس تصرفات لا تليق بالدعاة والمربين ضد من حاف وأخطأ.

نحن كمن يقف على شط البحر وهو يرى الغرقى، فلا سبيل لعتابهم لماذا نزلتم، بل أوصل لهم أطواق النجاة وخذهم بلطفك، وهذا هو منهاج النبوة وسبيل الله للأقوم للدعوة والتربية.

إن طبيعة التوجيه الإسلامي ينطلق في ثلاث مسارات: بنائية، ووقائية، ودوائية أو علاجية^{٣٠}، ومن هذه المسارات سنرسم خارطة النجاة -بإذن الله- من هذا البحر المظلم.

أولاً: البناء:

أصل في كل مسلم أن يقرّ في قلبه مفاهيم عديدة، ولعل من أكدها:

- تعظيم الله تعالى، ومن رام هذا المعنى لم يجد ما يُشبع مهجته تجاه خالقه ورازقه إلا بالبحث والتعرف على معاني أسماء الله وصفاته والدلالة عليها بمخلوقاته والنظر في آياته، ولعله يتوصل لشيء من ذلك. إن من المعاني التي يتركها هذا المفهوم هو أن تكون الرقابة لله فقط، ومن فهم معنى اسم الرقيب مثلاً أدرك أن من راقب الله في خواطره عصمه في جوارحه، وكان الله عند هذا العبد أحق من يُخشى ويُخاف. فما أعظم أن تتربى النفوس على توقير الله وتعظيمه واحترامه وتقديسه ومن ثم خشيته والهيبة منه، وأن لا يكون أعظم منه في قلب العبد رقيباً وحسيباً، قال ابن القيم في الفوائد: "من وعظّم وقار الله في قلبه قبل أن يعصيه وقره الله في قلوب الخلق قبل أن يُذلوه"، هكذا ينبع لنا سر مكانة أولياء الله في نفوس خلقه، إنهم ملوك في المكانة بلا حرس بالمكان، وقد سئل أحدهم بم يستطيع غض البصر؟ قال: بعلمك أن نظر الله إليك أسبق من نظرك، هكذا كانت آثار تعظيمهم لربهم.

إذاً من لوازم تعظيم الله هو الوقوف عند حرّماته، ومعرفة الله حق معرفته، ومعرفة الله كما قال ابن القيم في الفوائد معرفتان: الأولى معرفة إقرار وهي التي اشترك فيها الناس البر والفاجر والمطيع والعاصي، والأخرى معرفة توجب الحياء منه جلّ وعلا والمحبة له وتعلق القلب به والشوق إلى لقائه وخشيته والإنابة إليه والأنس به والفرار من الخلق إليه.

^{٢٩} "منابع مشكلات الأمة الإسلامية والعالم المعاصر" لمقاد يالجن، ص ٤٧.

^{٣٠} "أصول التربية الإسلامية" لصالح الحازمي، ص ٦٣.

وإذا خلوت بريية في ظلمة والنفس داعية إلى العصيان

فاستح من نظر الإله وقل لها إن الذي خلق الظلام يراني

عن أبي العباس عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال : كنت خلف النبي صلى الله عليه وسلم يوماً ، فقال : "يا غلام، إني أعلمك كلمات: احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك، إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله، واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء، لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، وإن اجتمعوا على أن يضروك بشيء، لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك، رفعت الأقالم وجفت الصحف"^{٣١}.

وفي رواية الإمام أحمد: "احفظ الله تجده أمامك، تعرف إلى الله في الرخاء يعرفك في الشدة، واعلم أن ما أخطأك لم يكن ليصيبك، وما أصابك لم يكن ليخطئك، واعلم أن النصر مع الصبر، وأن الفرج مع الكرب، وأن مع العسر يسرا". احفظه في حواسك وخواطرك وكل تعاملك، والمثل بالمثل فسيكون معك في شدتك وكربتك وكل ضائقة دينية أو دنيوية تحل بك. قال أحمد الأنطاكي: (إذا أردت صلاح قلبك فاستعن عليه بحفظ جوارحك)^{٣٢}.

وحين تكون النفس متوجهة إلى ربها لا يتعلق فيها شائبة تكون قد تحررت من ربة الرياء والهوى، قال سيد قطب: (عبودية الناس لغير الله تنشئ الذلة)، وقال: (الذين يتوجهون إلى الله وحده، ويخلصون قلوبهم لله، لا يملك الشيطان أن يسيطر عليهم، مهما وسوس لهم فإن صلحتهم بالله تعصمهم أن ينساقوا معه، وينقادوا إليه، وقد يخطئون، لكنهم لا يستسلمون، فيطردون الشيطان عنهم ويثبون إلى ربهم من قريب).

إن التوقير والتعظيم للخالق يورث الخوف من مقام الرب تبارك وتعالى والذي يُحتم على العارف تقييد شهواته. إن الهوى عنيف شديد يغطي العقل ويقيده فيحتاج لقوة هائلة لهدمه مرتكزة على الخوف من الله^{٣٣}.

ولذا ينبغي لراحي رحمة ربه والخائف من مقامه أن يظهر ذلك عليه في أمرين:

١. البعد عن المعاصي والذنوب، فهي تجتمع على العبد حتى تهلكه. قال ابن القيم في الفوائد: (إياك والذنوب فهي جراحات، ورب جرح وقع في مقتل)، وقال أيضاً: (إياك والمعاصي فقد أذهبت عزّ واسجدوا). وعلى من زلت به القدم أن يعود بلا ملل ولا كلل، عُد وانكسر بين يدي الرحيم الرحمن حتى تحسن الدخول عليه، وتذكر دائماً سوء العاقبة التي تنتظر أهل الفواحش ومدى حرمانهم من النعيم السرمدى، بل وزوال النعيم الدنيوي، وتأمل هذا الكلام العجيب لابن القيم لعاقبة ذنوب وجراحات الشهوات على وجه الخصوص: (الصبر عن الشهوة أسهل من الصبر على ما توجبه الشهوة، فإنها: إما أن توجب ألماً وعقوبة، وإما أن تقطع لذة أكمل منها، وإما أن تضيع لذة أكمل منها، وإما أن تضيع وقتاً إضاعته حسرة وندامة، وإما أن تتلم عرضاً توفيره للعبد أنفع من ثلمه، وإما أن تذهب مالا بقاءه خير له من ذهابه، وإما أن تضع قدراً وجاهاً قيامه خير من وضعه، وإما أن تسلب نعمة بقاءها أذى وأطيب من قضاء الشهوة، وإما أن تطرق لوضيع إليك طريقاً لم يكن يجدها قبل ذلك، وإما أن تجلب همماً وغمماً وجزناً وخوفاً لا يقارب لذة الشهوة، وإما أن تنسى علماً ذكره أذى من نيل الشهوة، وإما أن تشمت عدواً

^{٣١} رواه الترمذي وقال : حديث حسن صحيح.

^{٣٢} "البداية والنهاية" (٣١٨/١٠).

^{٣٣} "منهج التابعين في تربية النفوس" لعبد الحميد البلابي.

وتحزن ولياً، وإما أن تقطع الطريق على نعمة مقبلة، وإما أن تحدث عيباً يبقى صفة لا تزول، فإن الأعمال تورث الصفات والأخلاق)^{٣٤}.

٢. العمل الصالح، تعال معي وتدبر قول الحق تعالى: "فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا" مريم: ٥٩، هل تدبرتها؟ لننتقل لآية أخرى: "إِثْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ" العنكبوت: ٤٥، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: (الصلاة إذا أتى بها كما أمر نهته عن الفحشاء والمنكر، وإذا لم تنهه: دل على تضييعه لحقوقها وإن كان مطيعاً، وقد قال تعالى: "فخلف من بعدهم خلف أضاعوا الصلاة" مريم: ٥٩، وإضاعتها: التقريط في واجباتها وإن كان يصليها)^{٣٥}.

إذا لعله اتضح المراد، إن العلاقة بين الأعمال الصالحة وعلى رأسها الصلاة وبين إجماع النفس من الفواحش والشهوات علاقة طردية، فمتى زادت المحافظة وال مداومة زاد تمكن الفرد من إجماع نفسه، ومتى بدأ التهاون والتراخي صعبت عليه نفسه، وسهل نفرانها. وتأمل معي في قصة يوسف-عليه السلام:- "كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء إنه من عبادنا المخلصين"، أي كفيناه الفاحشة لأنه عبد مخلص، ومن لوازم العبودية العمل الصالح، فتدبر!

وكذلك سائر الطاعات والقربات فكن سخيّاً على نفسك كريماً بها، وفي هذا المعنى يروي أبو الهياج الأسدي قوله: "رأيت رجلاً في الطواف يدعو: اللهم قن شح نفسي، لا يزيد على ذلك شيئاً، فقلت له؟ فقال: إذا وقيت شح نفسي لم أسرق، ولم أزن، ولم أفعل. فإذا الرجل عبدالرحمن بن عوف"^{٣٦}.

ولا بد أن يتعاهد المرء نفسه فيما يقدم ويبدل، وأن لا يترك نفسه هماً دون إصلاح وتقويم، وهكذا سار الأولون، ومضوا قال ابن المبارك: "إن الصالحين فيما مضى كانت أنفسهم تواتيهم على الخير عفواً، وإن أنفسنا لا تكاد تواتينا إلا على كره فينبغي لنا أن نكرهها"^{٣٧}. وإذا كان ابن المبارك وأهل زمانه يُكرهون أنفسهم عليها، ولم تكن لهم العفوية في العمل الصالح فنحن من باب أولى وأحوج حيث كثرة المشغلات ووجود الصوارف عن الطاعات، والمصيبة العظمى أن صوارفنا -إلا من رحم الله- تركزت في الشهوات والموبقات وقد طمت وعمت، وليست مشغلات السابقين وصوارفهم التي تتفاوت من المباح والمكروه إلى الفاضل والمفضول. فلنحذر ونحرص.

ثانياً: الوقاء:

وهذا المسار الثاني في سبيل الوقاية من نار الشهوات وهو وسائل الوقاية، وأصل هذا المسار قول الحق تبارك وتعالى: "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُواتِ الشَّيْطَانِ^٣ وَمَنْ يَتَّبِعْ خُطُواتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ^٤ وَلَوْ لَأَفْضَلُ اللَّهُ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ^٥ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ" النور: ٢١. وألخص هذا المسار في أمور ثلاثة:

١. الوقاء (الجسدي) أو الحسي، وأحصره في أمرين:

أ. غض البصر؛ وبه تطمئن النفس، وينشرح الفؤاد وتتقد الفطنة، وأصله امتثال كلام الحق تبارك وتعالى: "قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ^٦ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ^٧ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ" النور: ٣٠. عن أبي سعيد الخدري عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: إياكم والجلوس

^{٣٤} "الفوائد".

^{٣٥} "مجموع الفتاوى" (٦/٢٢).

^{٣٦} "تفسير القرطبي" (١٨/٢٩، ٣٠) بتصرف.

^{٣٧} "صفة الصفوة" (١٤٥/٤).

في الطرقات قالوا يا رسول الله ما لنا بد من مجالسنا نتحدث فيها قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: فإذا أبيتم إلا المجلس فأعطوا الطريق حقه قالوا وما حقه قال: "غض البصر وكف الأذى ورد السلام والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر"^{٣٨}. وفي هذا أمر رباني بالتزام حدود النظر وعدم إطلاقه فيما حرم الله وهو في النساء، ويتعدى ذلك الجارية المشتهاة، فقد كره عطاء النظر إلى الجوّاري التي يُعْن بِمَكَّةِ إِلَّا أَنْ يُرِيدَ أَنْ يَسْتَرِي^{٣٩}، وَقَالَ الزُّهْرِيُّ فِي النَّظَرِ إِلَى الَّتِي لَمْ تَحْضُ مِنْ النِّسَاءِ: لَا يَصْلُحُ النَّظَرُ إِلَى شَيْءٍ مِنْهُنَّ مِمَّنْ يُسْتَهَى النَّظَرُ إِلَيْهِ وَإِنْ كَانَتْ صَغِيرَةً^{٤٠}. وَقَالَ سَعِيدُ بْنُ أَبِي الْحَسَنِ: إِنَّ نِسَاءَ الْعَجَمِ يَكْتَشِفْنَ صُدُورَهُنَّ وَرُءُوسَهُنَّ قَالَ: اصْرَفْ بَصْرَكَ عَنْهُنَّ^{٤١}، وفي شأن النظر للمردان بشهوة والاسترسال في ذلك فهو من أشد الفتن والبلايا، وأثر عن السلف المنهج الرباني الذي اقتفوه في التعامل مع المردان، فقد روى ابن أبي الدنيا قَالَ بَعْضُ الثَّابِعِينَ: (مَا أَنَا بِأَخْوَفَ عَلَى الثَّابِتِ النَّاسِكِ مِنْ سَبْعِ ضَارٍّ مِنَ الْعُلَامِ الْأَمْرَدِ يَعْدُ إِلَيْهِ)^{٤٢}. وعنده قال سُفْيَانُ الثَّوْرِيُّ يَقُولُ: (لَوْ أَنَّ رَجُلًا عَبَثَ بِعُلَامٍ بَيْنَ أَصْبَعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ رَجُلَيْهِ يُرِيدُ الشَّهْوَةَ لَكَانَ لَوَاطِئًا)^{٤٣}، وروى عَنْ أَبِي سَهْلٍ قَالَ: (سَيَكُونُ فِي هَذِهِ الْأُمَّةِ قَوْمٌ يُقَالُ لَهُمُ الْوُطِيُّونَ، عَلَى ثَلَاثَةِ أَصْنَافٍ: صِنْفٌ يَنْظُرُونَ، وَصِنْفٌ يُصَافِحُونَ، وَصِنْفٌ يَعْمَلُونَ ذَلِكَ الْعَمَلَ)^{٤٤}. وروى عن الْحَسَنِ بْنِ نَكْوَانَ قَالَ: (لَا تُجَالِسُوا أَوْلَادَ الْأَغْنِيَاءِ، فَإِنَّ لَهُمْ صُورًا كَصُورِ النِّسَاءِ، وَهُمْ أَشَدُّ فِتْنَةً مِنَ الْعَذَارَى)^{٤٥}. وقال أيضاً عَنِ الْوَضِيِّ بْنِ عَطَاءٍ، عَنْ بَعْضِ الثَّابِعِينَ، قَالَ: (كَانُوا يَكْرَهُونَ أَنْ يُجِدَّ الرَّجُلُ النَّظَرَ إِلَى الْعُلَامِ الْجَمِيلِ الْجَمِيلِ)^{٤٦}. وفي ذم الهوى لابن الجوزي قَالَ النَّجِيبُ: (وَكَانُوا يَكْرَهُونَ أَنْ يُجِدَّ الرَّجُلُ النَّظَرَ إِلَى الْعُلَامِ الْجَمِيلِ الْوَجْهِ)^{٤٧}. قال ابن مفلح^{٤٨}: (وقال ابن الجوزي: كان السلف يقولون في الأمرد: هو أشد فتنة من العذاري، فإطلاق البصر من أعظم الفتن). وليستحضر في ذلك قول الحق تبارك وتعالى: "يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور"، قال ابن عباس: (الرجل يكون في القوم فتمر بهم المرأة فيريهم أنه يغض بصره عنها فإن رأى منهم غفلة نظر إليها فإن خاف أن يفتنوا به غض بصره عنها وقد اطلع الله من قلبه أنه ود أنه نظر إلى عورتها)^{٤٩}. وذات الأمر للمؤمنات: "وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَعْضُنْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ"^{٥٠} النور: ٣١، عن أسماء بنت أبي بكر قالت سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "من كان منكم يؤمن بالله واليوم الآخر فلا ترفع رأسها حتى يرفع الرجال رؤوسهم"^{٥١}. كراهة أن يرين من عورات الرجال. وفي قول الله تعالى: "إن خير من استأجرت القوي الأمين" يقول ابن جرير: تقول إن خير من تستأجره للرعى القوي على حفظ ماشيتك والقيام عليها في إصلاحها وصلاحها الأمين الذي لا تخاف خيانتة فيما تأمنه عليه، وقيل إنها لما قالت ذلك لأبيها استنكر أبوها ذلك من وصفها إياه فقال لها وما علمك بذلك فقالت أما قوته فما رأيت من علاجه ما عالج عند السقي على البئر وأما الأمانة فما رأيت من

^{٣٨} رواه البخاري (٢٣٣٣) ومسلم (٢١٢١).

^{٣٩} رواه البخاري معلقاً بالجزم ٢٢٩٩/٥.

^{٤٠} رواه البخاري معلقاً بالجزم ٢٢٩٩/٥.

^{٤١} رواه البخاري معلقاً بالجزم ٢٢٩٩/٥.

^{٤٢} رواه ابن أبي الدنيا (١٣٤).

^{٤٣} رواه ابن أبي الدنيا (١٢٤).

^{٤٤} رواه ابن أبي الدنيا (١٣٦).

^{٤٥} رواه ابن أبي الدنيا (١٤٠).

^{٤٦} رواه ابن أبي الدنيا (١٣٣).

^{٤٧} رواه ابن أبي الدنيا (٢٤١).

^{٤٨} "الفروع" (١١٣/٥).

^{٤٩} رواه ابن أبي شيبة ج: ٤ ص: ٦ (١٧٢٢٨).

^{٥٠} رواه أبو داود (٢٤٦/٢) ح (٨٥١)، وصححه الألباني في صحيح أبي داود.

غض البصر عني ، ونحنو ذلك جاءت الأخبار عن أهل التأويل. وذكر ابن القيم جملة من فوائد غرض البصر^{٥١}:

١- امتثال لأمر الله الذي هو غاية سعادة العبد في معاشه ومعاده، وليس للعبد في دنياه وآخرته أنفع من امتثال أوامر ربه تبارك وتعالى، وما سعد من سعد في الدنيا والآخرة إلا بامتثال أوامره، وما شقي من شقي في الدنيا والآخرة إلا بتضييع أوامره.

٢- يمنع من وصول أثر السهم المسموم الذي لعل فيه هلاكه إلى قلبه.

٣- أنه يورث القلب أنسا بالله وجمعية على الله، فإن إطلاق البصر يفرق القلب ويشتته، ويبعده من الله، وليس على العبد شيء أضر من إطلاق البصر فإنه يوقع الوحشة بين العبد وبين ربه.

٤- يقوي القلب ويفرحه، كما أن إطلاق البصر يضعفه ويحزنه.

٥- أنه يكسب القلب نورا كما أن إطلاقه يكسبه ظلمة، ولهذا ذكر الله آية النور عقيب الأمر بغض البصر، فقال : "قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهم"، ثم قال أثر ذلك : "الله نور السماوات والأرض، مثل نوره كمشكاة فيها مصباح"، أي مثل نوره في قلب عبده المؤمن الذي امتثل أوامره واجتنب نواهيه، وإذا استنار القلب أقبلت وفود الخيرات إليه من كل جانب، كما أنه إذا أظلم أقبلت سحائب البلاء والشر عليه من كل مكان، فما شئت من بدعة وضلالة واتباع هوى، واجتناب هدى، وإعراض عن أسباب السعادة واشتغال بأسباب الشقاوة، فإن ذلك إنما يكشفه له النور الذي في القلب، فإذا فقد ذلك النور بقي صاحبه كالأعمى الذي يجوس في حنادس الظلام.

٦- أنه يورث الفراسة الصادقة التي يميز بها بين المحق والمبطل، والصادق والكاذب، وكان شاه بن شجاع الكرمانى يقول : من عمر ظاهره باتباع السنة وباطنه بدوام المراقبة، وغض بصره عن المحارم، وكف نفسه عن الشهوات، واعتاد أكل الحلال لم تخطئ له فراسة ؛ وكان شجاع هذا لا تخطئ له فراسة.

٧- أنه يورث القلب ثباتا وشجاعة وقوة، ويجمع الله له بين سلطان البصيرة والحجة وسلطان القدرة والقور، كما في الأثر : "الذي يخالف هواه يفر الشيطان من ظله"، و ضد هذا تجده في المتبع هواه من ذل النفس ووضاعتها ومهانتها وخستها وحقارتها، وما جعل الله سبحانه فيمن عصاه، كما قال الحسن : "إنهم وإن طقطقت بهم البغال وهملجت بهم البراذين، فإن ذل المعصية لا يفارق رقابهم، أبى الله إلا أن يذل من عصاه"، وقد جعل الله سبحانه العز قرين طاعته والذل قرين معصيته، فقال تعالى : "ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين"، وقال تعالى : "ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين"، والإيمان قول وعمل، ظاهر وباطن، وقال تعالى : "من كان يريد العزة فلله العزة جميعا، إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه"، أي من كان يريد العزة فليطلبها بطاعة الله وذكره من الكلم الطيب والعمل الصالح، وفي دعاء القنوت : "إنه لا يذل من واليت ولا يعز من عاديت"، ومن أطاع الله فقد والاه فيما أطاعه، وله من العز سب طاعته، ومن عصاه فقد عاداه فيما عصاه فيه، وعليه من الذل بحسب معصيته.

٨- أنه يسد على الشيطان مدخله من القلب، فإنه يدخل مع النظرة وينفذ معها إلى القلب أسرع من نفوذ الهواء في المكان الخالي، فيمثل له صورة المنظور عليه ويزينها، ويجعلها صنما يعكف عليه القلب، ثم يعده ويمنيه ويوقد على القلب نار الشهوة، ويلقي عليه حطب

^{٥١} "روضة المحبين".

المعاصي التي لم يكن يتوصل إليها بدون تلك الصورة، فيصير القلب في اللهب، فمن ذلك تلد الأنفاس التي يجد فيها وهج النار، وتلك الزفرات والحرقات، فإن القلب قد أحاطت به النيران من كل جانب، فهو وسطها كالشاة في وسط التنور، ولهذا كانت عقوبة أصحاب الشهوات بالصور المحرمة : أن جعل لهم في البرزخ تنوراً من نار، وأودعت أرواحهم فيه إلى حشر أجسادهم، أراها الله نبيه -صلى الله عليه وسلم- في المنام في الحديث المتفق على صحته.

٩- أنه يفرغ القلب للتفكر في مصالحه والاشتغال بها، وإطلاق البصر يشنت عليه ذلك ويحول بينه وبينها فتتفرط عليه أموره ويقع في اتباع هواه وفي الغفلة عن ذكر ربه، قال تعالى : {ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان أمره فرطاً}، وإطلاق النظر يوجب هذه الأمور الثلاثة بحسبه.

١٠- أن بين العين والقلب منفذاً أو طريقاً يوجب اشتغال أحدهما بما يشغل به الآخر، يصلح بصلاحه ويفسد بفساده، فإذا فسد القلب فسد النظر، وإذا فسد النظر فسد القلب، وكذلك في جانب الصلاح، فإذا خربت العين وفسدت خرب القلب وفسد، وصار كالمزبلة التي هي محل النجاسات والقاذورات والأوساخ، فلا يصلح لسكنى معرفة الله ومحبه والإجابة إليه، والأنس به، والسرور بقربه، وإنما يسكن فيه أضداد ذلك.

ب. هجر المثيرات، وترك ما قد يكون سبباً ولو كان متوقفاً في إثارة الشهوة، وهذه المثيرات منها الحال، ومنها الزمان ومنها المكان، ومنها الصحبة؛ فليحسب المؤمن نفسه عن كل مورد للهلاك، ويشد من أزره. تأمل معي قول الحق-تبارك وتعالى- في وصف يوسف لما أرادت امرأة العزيز: "واستبقا الباب"، إنه الفرار من مكان المعصية وهجرها، ولا يلقاها إلا نوحظ عليه، وقوة وعزيمة يهبها الله لمن يشاء، قال-عليه الصلاة والسلام: "المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف وفي كل خير" رواه مسلم. قال النووي في شرحه: المراد بالقوة هنا عزيمة النفس والقريحة في أمور الآخرة.

ولاحظ أيضاً أن وجود يوسف-عليه الصلاة والسلام- في بيت العزيز سهّل على امرأة العزيز إجراءات بغيتها المشينة التي لولا رحمة الله لكادت بيوسف، أي لو لم يكن يوسف معها في المنزل ربما لم تستطع الكيد به لهذه الدرجة حيث غلقت الأبواب ومكنته من نفسها وهددته فوق ذلك، وهذه رسالة للمجدي الاختلاط ودعاة السفور ومن يقلب الحقائق لترويج الفاحشة وبعث الجاهلية. ونؤكد على خطر التقية والإعلام الجديد في كثرة استخدامها، والجلوس معها لاسيما خلوة العزب من الفتيان والفتيات، وليحاول ألا يمكث بمفرده معها، وليعتدل في كل أمور في زينته ولباسه ومزاحه وحتى ورود أماكن الشهوة كالمسابح وغيرها، وكلما وجد في نفسه شيء من أي مثير فليفر منه فراره من الأسد. ومن المثيرات أيضاً البيئة المفسدة والصحبة المغوية وهؤلاء لا ينكر عاقل أثرهم السيء، وفي هذا قد يورد البعض شبهة في أنه لا يصحب الصالحين؛ لأنه قد يكون ممارس للفاحشة أو واقع في حائلها ويجعل هذا من التلاعب والتزييف، ونقول له: (إن مقارفة الرذيلة ممقوت بلا شك، ومن يجالس الصالحين الأخيار فهو أولى الناس باجتنابها ومفارقتها، ولكن هل مفارقتها للصالحين ستزيده قريباً من الرذيلة أم بعداً عنها؟ وحين يفارقهم فهل سيزداد إيمانه أم ينقص؟ بل هل سيبقى ذلك الصوت الذي يلومه من داخله ويدفعه نحو التوبة أم لا؟ إن الشرع القويم، يدعو إلى خلاف ذلك فالمقصر المذنب حين يصاحب الصالحين يحشره الله معهم يوم القيامة؛ فحين سئل النبي عن رجل يحب القوم ولما يلحق بهم قال: "المرء مع من أحب" وهذا ليس دعوة إلى الاتكاء على هذا

الحب وإهمال حظ النفس من صالح العمل؛ فالحب الصادق يدفع المرء إلى التأسي بمن يحب، والسير في طريقه. والمنطق السليم يقول لصاحبه بقاءك مصاحباً للصالحين حتى لو وقعت في التقصير خير من مفارقتك إياهم، وحين تفارقهم فلن يؤدي بك ذلك إلى التوبة والإقلاع، بل سيؤدي بك إلى استمراء السوء، وإلى مزيد من الارتكاس حمانا الله وإياك^{٥٢}.

٢. (الروحي) أو المعنوي: ويتعين في مدافعة الخواطر القلبية السيئة ومقاومتها، وهذا هو الصراع الحقيقي والجهاد المصيري حتى حسن العقاب أو سوءها نسأل الله حسن الختام، ولذا فعوارض الشهوة كثيرة لكن لا يسترسل المؤمن معها حتى ولو كلف نفسه الكثير؛ لأن الانحراف الطفيف ينتهي عادة بالانحراف الكامل. وأعجب بما قال ابن القيم في الفوائد لهذا المعنى: (من أراد صفاء قلبه فليؤثره الله على شهوته)، وقال: (واعلم أن الخطرات والوساوس تؤدي متعلقاتها إلى الفكر فيأخذها الفكر فيؤديها إلى التذكر. فيأخذها الذكر فيؤديها إلى الإرادة، فتأخذ الإرادة فتؤديها إلى الجوارح والعمل، فتسحتكم فتصير عادة، فردها من مبادئها أسهل من قطعها بعد قوتها وتامها). إن صاحب الهوى بصيرته عمياء، جزع من صبر ساعة واحتمل ذل الأبد. وما كان المرء يستقبحه أولاً قد يرضى به مرة أخرى إذا تكرر وقوعه وذكره، وهذا لعمرى يُعمم على سائر الذنوب لاسيما الفواحش التي قد تدخل قلب الإنسان شيئاً فشيئاً حتى تستولي عليه برمته. قال ابن القيم: (وينبغي أن يتمرن على دفع الهوى المأمون العواقب ليتمرن بذلك على ترك ما تؤدي عواقبه. وليعلم اللبيب أن مدمني الشهوات يصيرون إلى حالة لا يلتذون بها. وهم مع ذلك لا يستطيعون تركها، لأنها قد صارت عندهم بمنزلة العيش الذي لا بد لهم منه... فإن قيل: فكيف يتخلص من هذا من قد وقع فيه؟ قيل: يمكنه التخلص بعون الله تعالى وتوفيقه له بأمور:

- عزيمة حرّ يغار لنفسه وعليها.
- جرعة صبر يصبر نفسه على مرارتها تلك السعة.
- قوة نفس تشجعه على شرب تلك الجرعة، والشجاعة كلها صبر ساعة.
- ملاحظته حسن موقع العقاب والشفاء بتلك الجرعة.
- إبقاؤه على منزلته عند الله وفي قلوب عباده.
- فرحه بغلبة عدوه وقهره له ورده خاسماً بغيظه وغمه وهمه.
- إثارة لذة العفة وعزتها وحلاوتها على لذة المعصية.
- التفكير في أنه لم يخلق للهوى.
- أن لا يختار أن يكون الحيوان البهيم أحسن حالاً منه.
- أن يتصور حاله بعد قضاء الوطر.
- أن متبع الهوى ليس أهلاً أن يطاع ولا يكون إماماً ولا متبوعاً. "لا ينال عهدي الظالمين" بل اتبع الذين ظلموا أهواءهم بغير علم".
- أن مخالفة الهوى تورث العبد قوة في بدنه وقلبه ولسانه.
- أن أغزر الناس مروءة أشدهم مخالفة لهواه.
- أن اتباع الهوى يغلق على العبد أبواب التوفيق، ويفتح له أبواب الخذلان.
- أن لكل عبد بداية ونهاية، فمن كانت بدايته إتباع الهوى، كانت نهايته الذل والصغار والحرمان والبلاء المتبوع بحسب ما اتبع من هواه.

^{٥٢} "كيف تواجه الشهوة" لمحمد الدويش، ص ٥١.

- أن الهوى رق في القلب، وغل في العنق، وقيد في الرجل، ومتابعه أسير لكل سيء الملكة. فمن خالفه عتق من رقه وصار حراً، وخلع الغلّ من عنقه والقيد من رجله وصار بمنزلة رجل سالم لرجل، بعد أن كان رجلاً فيه شركاء متشاكسون.
- أنك إذا تأملت السبعة الذين يظلمهم الله في ظل عرشه يوم لا ظل إلا ظله، وجدتهم إنما نالوا ذلك الظل بمخالفة الهوى)^{٥٣}.

٣. (الحسي المعنوي) أو الجسدي الروحي: وأصل ذلك ما رواه عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج فإنه أغض للبصر وأحصن للفرج ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء"^{٥٤}.

إذا الوقاء الحسي المعنوي ينحصر في وقائين:

أ- الزواج، وهو أولاً وأجلها، ويشبع الزواج الغريزة النفسية والجسدية التي فطر عليها الخلق، وهو وجاء وشفاء لأسقام القلوب، لذا من عزم على الزواج فعليه أن يعتني باختياره والكلام موجه أيضاً للفتاة أن تحسن اختيار شريك حياتها، ولا يفهم من حديثي أن تنصب الشروط والبنود المثالية للقبول والرفض، ولكن ليكن ثمة محددات تقود إلى الاستئناس بهذا الشريك الأبدي في الغالب (لاسيما المحددات التي من طبيعة النفس البشرية الميل لها). قال تعالى: **"هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا"**. الأعراف: ١٨٩.

وتأمل هذا الحديث الذي ينبئك عن ثمرة من ثمرات الزواج تتأكد في مثل زماننا، عن جابر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم رأى امرأة فأتى امرأته زينب وهي تمعس منيئة لها فقضى حاجته ثم خرج إلى أصحابه فقال: "إن المرأة تقبل في صورة شيطان وتدبر في صورة شيطان فإذا أبصر أحدكم امرأة فليأت أهله فإن ذلك يرد ما في نفسه"^{٥٥}.

ولذا فالزواج حاجة مهمة وضرورة قائمة تجعل المرء متوازناً جل يومه، يستطيع أن يقوم بمهامه الطبيعية وحياته اليومية بعيداً عن القلق والهم، والجدول التالي^{٥٦} يحدد الفرق بين حالة المراهق النفسية قبل وبعد الزواج:

المرحلة	الوضع النفسي	المرحلة	الوضع النفسي
المراهق قبل الزواج	١. عدم الاستقرار. ٢. الحاح الغريزة. ٣. ضعف الشعور بالنعوم. ٤. الفراغ النفسي وعدم الاكتمال.	المراهق بعد الزواج	١. السكن والاستقرار. ٢. الإشباع الغريزي. ٣. الإحساس بالنعوم. ٤. الامتلاء النفسي والاكتمال.

١. وصدق الحق تعالى حين قال: **"وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ"** الروم: ٢١، ومن ضاقت به الدنيا في مال وما قام مكانه فإن الله قد تواعد برزق وإعانتة فليقدم بعد التوكل على الله واليقين الصادق، فعن أبي هريرة

^{٥٣} "روضة المحبين".
^{٥٤} رواه البخاري (١٨٠٦) ومسلم (١٤٠٠).
^{٥٥} رواه مسلم (١٤٠٣).
^{٥٦} "المراهقون" لعبد العزيز النغمشي، ص ٨٤.

قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "ثلاثة حق على الله عونهم: المجاهد في سبيل الله، والمكاتب الذي يريد الأداء، والناكح يريد العفاف"^{٥٧}.

والحق كذلك فيمن تزوج وكانت الزوجة لا تشبع شبقه وحاجته أن يتزوج الأخرى فيقضي وطره وبنات المسلمين، قال الغزالي: (ومن الطباع ما تغلب عليها الشهوة بحيث لا تحصنه المرأة الواحدة فيستحب لصاحبها الزيادة على الواحدة إلى الأربع... وكان الصحابة من له الثلاث والأربع، ومن كان له اثنتان لا يحصى، ومهما كان الباعث معلوماً فينبغي أن يكون العلاج بقدر العلة، فالمراد تسكين النفس، فليُنظر إليه في الكثرة والقلة)^{٥٨}.

وآثار تأخير الزواج كثيرة وعواقبها وخيمة منها^{٥٩}:

١. إهدار الطاقة العضوية بإضاعة ماء الحياة في المداعبات المحظورة والزنا والعادة السرية.
٢. إهدار الطاقة النفسية والمعنوية بإضاعة الحيوية والفتوة والجزارة العاطفية والتفكير والخيال والشعور الاجتماعي والشجاعة النفسية في المغازلات والاستعراضات والفتوات الزائفة.
٣. تعريض الشباب للفتنة.
٤. العنوسة.

وتأخير الزواج فكرة استعمارية، وخطة يهودية، تدمر بواسطتها أخلاق الفتيان والفتيات؛ حيث تشبع الغرائز بكل الطرق-إلا طريق الزواج- بالعلاقات الفنية والمهنية والدراسية والأسرية وبمستويات مختلفة من الإشباع، تبدأ بالإثارة مروراً بالغزل والعشق واللقاءات، وانتهاءً بالزنا والسفاح، ويصير الشباب لقمة سائغة للعدو مهزوماً نفسياً ومعنوياً. وقد أسست الفكرة وأهلت، حتى بات هذا الإشباع المنحرف أمراً طبيعياً بل هو الأصل حتى يتخذ الفتى صديقةً والعكس، وعلى هذا سارت المجتمعات الغربية، والمجتمعات شبه الإسلامية في بلاد الإسلام. وصار تأخير الزواج أمراً عادياً وعرفاً بين الناس، والتبكير به هو الشذوذ المستغرب!! ومن هنا يبدأ الانحراف بمستوياته المختلفة، حتى ينتهي إلى هتك الأعراض وتمريغ الفضيلة باسم الحضارة والتطور.

ب- الصوم، وهو علاج ووقاء بدني نفسي، يقول الإمام ابن القيم-رحمه الله-^{٦٠}: (وللصوم تأثير عجيب في حفظ الجوارح الظاهرة، والقوى الباطنة، وحمايتها عن التخليط الجالب لها المواد الفاسدة التي إذا استولت عليها، أفسدتها، واستفراغ المواد الرديئة المانعة لها من صحتها، فالصوم يحفظ على القلب والجوارح صحتها، ويعيد إليها ما استلبته منها أيدي الشهوات، فهو من أكبر العون على التقوى كما قال تعالى: "يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون" البقرة: ١٨٥).

ثالثاً: الدواء:

قال الله تعالى: "قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ" الزمر: ٥٣، وقال تعالى: "وَأَنِّي لَعَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَىٰ" طه: ٨٢. فحديثي هنا إلى من اعتراه الهوى وخاضت قدماه وحل الفاحشة بعد أن غره سراها، فالبعض في مثل هذه الحالات يقنط وييأس، والأمر خلاف ذلك فالأصل في البشرية هو الخطأ؛ وخير الخطائين التوابون من لوازم

^{٥٧} صححه الألباني في صحيح الترمذي (١٣٥٢).

^{٥٨} "إحياء علوم الدين" (٣٠/٢).

^{٥٩} "المراهقون" لعبد العزيز النغمشي، ص ٩٣.

^{٦٠} "زاد المعاد" (٢/٢٩).

التوبة الأوبة والاستغفار، ولا يسوغ كلامي هذي الاستمراء أو الاستخفاف بالتجربة لمن عافاه الله، ولكنه حقيقة لابد من توقيها، وهذه بعض الوصايا لمن وقع وأراد الدواء والعلاج، فأبدأ بأهمها:

أ. الدعاء: الله ما أعظم الدعاء وأنفعه وأبلغ وقعته وتأثيره. يصف المريض شكواه للطبيب ويحاول أن يكون أكثر وضوحاً وصراحة وجرأة في بسط ما يعاني منه، ثم تجده مرعياً سمع قلبه لتعليمات الطبيب مقتنعاً بكل ما يقول لأنه لاشك صاحب الحاجة، والله المثل الأعلى مع عبده، فالعبد يشكو لربه ويبسط شكواه عن طريق دعائه وابتهاله ويحاول التقرب والتذلل لخالقه ليجد الباب مفتوحاً فيلج على خالقه ومولاه، وهو في ذات الوقت يرعوي لنصوص الوحيين تدبراً وتطبيقاً حرصاً على العلاج والوقاية من سموم الفواحش والموبقات.

إن الإنكسار بين يدي الجبار العلام ومن ثم سؤاله وطلبه لهو أسمى معاني العبودية وأوثقها نفعاً "وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ" غافر: ٦٠، ولك أن تجعل الدعاء في الوقاء والدواء، فقد استخدمه الرسول صلى الله عليه وسلم كثيراً لاسيما مع هذه الحالات فقد دعا للشاب الذي استأذنه في الزنا: "اللهم طهر قلبه وحصن فرجه"، وعن عبد الله بن مسعود عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه كان يقول: "اللهم إني أسألك الهدى والنقى والعفاف والغنى"^{٦١}. وهذا يوسف عليه السلام يفر إلى الله هاجراً الدنيا وفتنتها مستلهاً ذلك بدعائه المشهور: "قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ^{٦٢} وَإِنِّي لَأَنْصُرُكَ عَلَيْهِمْ وَإِنِّي لَأَكْفُرُ بِالْجَاهِلِينَ" يوسف: ٣٣. وقال تعالى في معرض قصة يوسف: "وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ^{٦٣} وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ^{٦٤} كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ^{٦٥} إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ" يوسف: ٢٤، أيها العبد مهما بذلت من الأسباب الشرعية والمادية فتوفيقك وحصانتك من ربك، فاطلبها منه وحده، والجا إليه دائماً لتحظى بها حين تحتاجها.

ب. مجاهدة النفس على دفع الخواطر السيئة وقطع الطمع في الفاحشة، ومجانبة مواطن إثارة الشهوة وهجرها البتة، ومحاولة القرب من النبيات المصلحة ومجالس الذكر، والصعود بالهمة مع أهل القمة بمجالستهم وبالقراءة في سيرهم وأثارهم وبطولاتهم وعزائمهم. ومما يبقيه على هذه المجاهدة ويدعمها لديه تذكّر العاقبة والمصير لمن جاهد هواه وانتصر على ملذاته، قال الحق تبارك وتعالى: "وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ" النازعات: ٤٠، وقال تعالى: "وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لِنَهْدِيَهُمْ لِمَنْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ" العنكبوت: ٦٩. قال صلى الله عليه وسلم: "من يضمن لي ما بين لحييه وما بين رجليه، أضمن له الجنة"^{٦٦}. وفي الجانب الآخر يتذكر عاقبة أهل الفحش والخنا، وكيف هي ميئاتهم وخاتمتهم-عافانا الله وإياكم- ومن ذلك ما ذكره الحافظ ابن كثير - رحمه الله - في حوادث سنة ثمان وسبعين ومائتين ما يلي: (وفيها توفي عبده بن عبد الرحيم - قبحه الله - ذكر ابن الجوزي أن هذا الشقي كان من المجاهدين كثيراً في بلاد الروم، فلما كان في بعض الغزوات والمسلمون يحاصرون بلدة من بلاد الروم، إذ نظر إلى امرأة من نساء الروم في ذلك الحصن، فهويها، فراسلها: ما السبيل إلى الوصول إليك؟ فقالت: أن تنتصر وتصدق إلي، فأجابها إلى ذلك، فما راع المسلمين إلا وهو عندها، فاغتم المسلمون بسبب ذلك غمّاً شديداً، وشق عليهم مشقة عظيمة، فلما كان بعد مدة مروا عليه وهو مع تلك المرأة في ذلك الحصن، فقالوا: يا فلان ما فعل قرآنك؟ ما فعل علمك؟ ما فعل صيامك؟ ما فعل جهادك؟ ما فعلت صلاتك؟ فقال: اعلّموا أنني أنسيت القرآن كله إلا قوله: "رُبَمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ*ذُرُّهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِمُهُمُ"

^{٦١} رواه مسلم (٢٧٢١).
^{٦٢} رواه البخاري (٦٤٧٤)، ورواه الترمذي (٢٤٠٨).

الأمْلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ" الحجر ٢-٣، وقد صار لي فيهم مال وولد)٦٣. وآخر كان واقفاً إزاء داره، فمرت به جارية لها منظر فقالت: أين الطريق إلى حمام منجاب، فدخلت الدار ودخل وراءها، فلما علمت بالأمر أظهرت له البشرى والفرح وقالت: يصلح أن يكون معنا ما يطيب به عيشنا وتقر به عيوننا، فخرج وتركها في الدار ولم يغلقها، فأخذ ما يصلح ورجع قد خرجت وذهبت، فهام الرجل وأكثر الذكر لها وجعل يمشي في الطريق وهو يقول:

يا رب قائلة يوماً وقد تعبت كيف الطريق إلى حمام منجاب

فبينما هو يوماً يقول ذلك، أجابته جارية من طاق:

هلا جعلت سريعاً إذ ظفرت بها حرزاً على الدار أو قفلاً على الباب

فازداد هيمانه بها، حتى حضرته الوفاة، فكان آخر كلامه من الدنيا هذا البيت ولم ينطق بالشهادة٦٤.

صاحب الشهوة عبداً فإذا غلب الشهوة أضحي ملكاً

وصدق سيد حين قال: (أشد القلوب استعصاءً على الهدى والاستقامة هي القلوب التي عرفت ثم انحرقت!.. فأما القلوب التي نوديت من قبل، فالنداء الثاني لا تكون له جدته، ولا تكون له هزته، ولا يقع فيها الإحساس وجديته، ومن ثم تحتاج إلى الجهد المضاعف، وإلى الصبر الطويل٦٥. وأورد ابن القيم٦٦ باباً فيمن أثر عاجل العقوبة والآلام على لذة الوصال الحرام، وقال: (هذا بابٌ إنما يدخل منه رجلاً: أحدهما: من تمكن من قلبه الإيمان بالآخرة وما أعد الله فيها من الثواب والعقاب لمن عصاه، فأثر أدنى الفوتين، واختار أسهل العقوبتين. والثاني: رجل غلب عقله على هواه فعلم ما في الفاحشة من المفسد، وما في العدول عنها من المصالح فأثر الأعلى على الأدنى).

وفي ذلك كله فعلى المؤمن أن يكون قوياً في عزمته وإرادته ولا يستسلم البتة فعلاج الذنب التوبة، روى مسلم من حديث أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف، وفي كل خير، احرص على ما ينفعك واستعن بالله ولا تعجز، وإن أصابك شيء فلا تقل: لو أني فعلت كذا كان كذا وكذا، ولكن قل: قدر الله وما شاء فعل، فإن لو تفتح عمل الشيطان". ومن معاني القوة٦٧:

١- القوة الإيمانية التي ترسخ في قلب المؤمن لا يزعزها شك، ولا تخذشها شبهة، ولا تعصف بها شهوة، ولو كان المؤمن ضعيف الجسم ولكن إيمانه أقوى من الجبال.

٢- القوة الإرادية النفسية التي لا يبقى بها المؤمن ضعيف الهمة، خائر العزيمة، كسلان فاتراً، وإنما ينبعث انبعاث الواثق من نفسه، ومن الحق الذي يمتثله مواجهاً المثبطات والمغريات والشبهات والشهوات بكل قوة وشجاعة خلافاً لمن يعبد الله على حرف إن أصابه خير اطمأن به، وإن أصابته فتنة انقلب على وجهه.

٦٣ "البداية والنهاية" (١١/٦٤).

٦٤ "العاقبة"، ص ١٧١.

٦٥ "ظلال القرآن" ٢ (٨٦٨).

٦٦ "روضة المحبين"، ص ٣٣٢.

٦٧ "حديث المؤمن القوي خير وأحب إلى الله" لفالح الصغير، ص ٢١.

وكان من دعاء النبي: "اللهم إني أسألك الثبات في الأمر، وأسألك عزيمة الرشد، وأسألك شكر نعمتك وحسن عبادتك، وأسألك لساناً صادقاً وقلباً سليماً، وأعوذ بك من شر ما تعلم، وأسألك من خير ما تعلم، وأستغفرك مما تعلم، إنك أنت علام الغيوب"^{٦٨}.

إن بقاء النفس متقلبة في موجات المجاهدة والمدافعة عن طريق المنع والكسب ترقبها وتعودها على الفضائل ومعالي الأمور، فيجاهدها بمنعها من الموبقات، ويجاهدها أيضاً ليعودها على الطاعات، وهذه من لوازم التوبة النصوح، وحتى إن أخفق أو زلّ فلا يقنط ويأس بل يعاود الكرة والأوبة فلا علاج له سوى التوبة والأوبة. وليقرّ في نفسه أن حبس اللحظات أيسر من دوام الحسرات. ثم مهما بلغ منك أيها العبد فأنت داخل في قول الرحمن الرحيم: " قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ". الزمر: ٥٣. وتأمل بربك هذا الحديث العظيم قال صلى الله عليه وسلم: "أذنب عبد ذنباً. فقال: اللهم اغفر لي ذنبي فقال تبارك وتعالى: أذنب عبدي ذنباً، فعلم أن له رباً يغفر الذنب، ويأخذ بالذنب، ثم عاد فأذنب؛ فقال: أي رب اغفر لي ذنبي؛ فقال تبارك وتعالى: عبدي أذنب ذنباً فعلم أن له رباً يغفر الذنب، ويأخذ بالذنب، ثم عاد فأذنب، فقال: أي رب اغفر لي ذنبي؛ فقال تبارك وتعالى: أذنب عبدي ذنباً؛ فعلم أن له رباً يغفر الذنب، ويأخذ بالذنب؛ اعمل ما شئت فقد غفرت لك"^{٦٩}.

* همسات للدعاة والمربين:

١. أهمية البدء بالعمل وتأسيس المجتمع ودعوته، وبذل الاستطاعة بالنفس والفكر وعدم القعود وترقب الدعوات. ومن حق المدعو أن يؤتى ويدعى، ولا يجلس الداعي في بيته وينتظر مجيء الناس إليه، هكذا كان يفعل الداعي الأول نبينا الكريم صلى الله عليه وسلم، يأتي مجالس قریش ويخرج على القبائل في منازلها في موسم قدومها مكة، ويذهب إلى ملاقة من يقدم إلى مكة ويدعوه^{٧٠}.

٢. على المرابي أن يبحث فيما سبق طرحه من وسائل البناء والوقاء والدواء فمن خلالها يستطيع التعامل مع المتربين والمجتمع الذي يدعو فيه، ومن أجديات ذلك أن يعرف الحاجات التي تتطلبها المراحل العمرية والأوساط التربوية وعلى رأسها الحاجة للبناء الإيماني (التعديدي). (وإذا كانت حاجة العبادة قائمة عند المراهق حيث يحس بالذنب، فيحتاج للتوبة والمغفرة. ويحس بالضعف، فيحتاج للسند والقوة. ويحس بالغفلة والنسيان؛ فيحتاج للذكرى والموعظة. ويحس بالخواء النفسي، فيحتاج لمعنى الحياة وفلسفتها. ويحس بالاح التساؤل عن الحياة والكون والنفس، فيحتاج للجواب الشافي، وإذا كانت هذه الحاجة قائمة فلماذا لا يسعى المرابون إلى توجيهها وإشباعها؟ ولماذا لا يبادرون إلى إرواء عطش المراهقين فيها، واستثمار استعداداتهم هذه؛ للإفادة منها؟^{٧١}. ويراعى في التوجيه العبادي:

- الحث عفوياً.
- مخاطبة العقول والأفكار إلى جانب العواطف والمشاعر.
- التبكير في التوجيه.

^{٦٨} رواه الترمذي (٣٤٠٧)، والنسائي (١٣٠٥).

^{٦٩} أخرجه البخاري (٧٥٠٧)، وأخرجه مسلم (٢٧٥٨).

^{٧٠} "أصول الدعوة" لعبد الكريم زيدان، ص ٣٧٤.

^{٧١} "المراهقون" لعبد العزيز النخيمشي، ص ٤١.

- استثمار المواقف.^{٧٢}

٣. التوسط في الطرح مطلب فلا إيغال يحفز الجاهل والمتطفل، ولا جفاء يربك المصاب ولا ينفعه.

٤. معرفة حال المدعويين ومراعاة أعمارهم وأحوالهم وبيئاتهم مطلب ضروري جداً، قال تعالى: "ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ" النحل: ١٢٥. ولعل من البصيرة العلم بما يدعو إليه الداعي ويأمر به وينهى عنه، ومن البصيرة العلم بأحوال المدعويين وما يحتاجون إليه. فعلى من يتصدى للدعوة إلى الله - عز وجل-، وللأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أن يتأمل جيداً في أسلوبه وطريقته، وأن يتأمل نفسه ومدى استعداده، وأن يتأمل في القوم الذين يدعوهم ويأمرهم وينهاهم، وبهذا نعلم أن مقام العامة يختلف عن مقام الطلاب، ومقام المسلمين غير مقام الكفار، ومقام النساء يختلف عن مقام الرجال، وهكذا فلكل مقام مقال. والناس ليسوا سواء في الاستجابة إلى الحق وقبول الدعوة، فمنهم السريع جداً في الاستجابة ومنهم البطيء جداً ومنهم بين هذين الحدين في درجات كثيرة جداً تستعصي على العد والإحصاء.^{٧٣} ومما يتعين مراعاته مراعاة جهل المذنب وحاله قال تعالى: "إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ فَأُولَئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا" النساء: ١٧. العاصي جاهل قطعاً ولولا جهله لما عصى الله، ووجه جهل العاصي أنه يجهل قدر ربه وما يجب له من طاعة لحق ربوبيته وألوهيته وعظمته وكمال أنعامه على عبده وكمال فقر العبد له، وعدم خفاء شيء على الله تعالى مما عمل الخلق، وأنهم مجزيون على أعمالهم. ومن جهل العاصي جهله بضرر الذنوب. (قال مجاهد وغير واحد من أهل العلم: كل من عصى الله خطأ أو عمداً فهو جاهل حتى ينزع عن الذنوب).^{٧٤}

٥. تجديد الوسيلة المطروحة لا يتعارض مع الأصل القائم، فكن مبدعاً مجدداً متجدداً في كل الوسائل السابقة البنائية والوقائية والعلاجية، وأوصلها بطرق تتناسب مع المستهدفين من حيث البيئات والمراحل وجميع حاجاتهم. فربما كانت محاضرة أو دورة أو تكليف بعمل ما، والاستفادة من المواقف وتوظيفها. (يحكى عن الإمام بشر الحافي رحمه الله سار ومعه رجل في طريق، فعطش صاحبه، فقال له: تشرب من هذه البئر؟ فقال بشر: اصبر على البئر الأخرى، فلما وصلا إليها قال له: البئر الأخرى. فما زال يعطشه. ثم التفت إليه فقال له: هكذا تنقطع الدنيا).^{٧٥}

٦. افتح آفاق التوبة ووسع سبل العودة ونوع طرق الأوبة ومد يد العون وساهم في إنقاذ الغرقى واحرص على ذلك متتبعاً الهدى النبوي القويم والشريعة المجتباة، تقول عائشة رضي الله عنها زوج النبي صلى الله عليه وسلم: "أتى رجل إلى رسول الله في المسجد في رمضان: فقال: يا رسول الله! احترقت احترقت، فسأله رسول الله ماشأته؟ فقال: أصبت أهلي، فقال: تصدق، فقال: والله يا نبي الله مالي شيء، وما أقدر عليه، قال: اجلس اجلس، فبينما هو ذلك أقبل رجل يسوق حماراً عليه طعام، فقال رسول الله: أين المحترق أنفاً؟ فقام الرجل، فقال رسول الله: تصدق بهذا، فقال: يا رسول الله أغيرنا؟ فوالله إنا لجياع مالنا شيء، قال: فكلوه"^{٧٦}. فانظر إلى أسلوب تعامل النبي مع هذا المذنب، لم يوبخه، ولم يعاقبه ولم يقنطه، بل سارع لبحث طرق

^{٧٢} "المراهقون" لعبد العزيز النغمشي، ص ٤٣.

^{٧٣} "المراهقون" لعبد العزيز النغمشي، ص ٣٧٦.

^{٧٤} تفسير ابن كثير (١/ ٤٦٣).

^{٧٥} "صيد الخاطر" لابن الجوزي، ص ٩٩.

^{٧٦} أخرجه البخاري (٦٣٢٢)، وأخرجه مسلم واللفظ له (١٨٧٤)

علاج مشكلته للتخلص من آثار ذنبه، بطرح أنواع الحلول حتى يختار منها المناسب، لقد فتح له أبواب الأكل، بل جاءه قانطاً خائفاً فحوّله النبي آمناً مبتسماً غنياً، هكذا يجب أن يفعل الدعاة مع المذنبين التائبين، يفتحوا لهم أبواب الخير وبوارق الأمل، وألا يكونوا منفرين ولا زاجرين، فالناس تحتاج رقة وعطف لا توبيخ وعنف^{٧٧}.

وفي هذا الحديث فائدة أخرى وهو التعبير الوقتي المناسب، قال الرسول عليه الصلاة والسلام: "أين المحترق أنفاً؟" قال القاري فيما نقله شارح سنن أبي داود: (التعبير وهو التوبيخ والتعيب على ذنب سبق لأحد من قديم العهد سواء علم توبته منه أم لا، وأما التعبير في حال المباشرة أو بعيده قبل ظهور التوبة فواجب لمن قدر عليه، وربما يجب الحد أو التعزير، فهو من باب الأمر بالمعروف أو النهي عن المنكر)^{٧٨}. وهذا يرجع في الحال التي يقدرها المربي أو الداعية ومكانه الذي يتكلم من خلاله وحالة من أمامه، وفي هذا السياق روى عبد الله بن عمر رضي الله عنهما- قال: سمعت رسول الله يقول: "لا تمنعوا نساءكم المساجد إذا استأذنكم إليها"، قال: فقال بلال بن عبد الله: والله لنمنعهن، قال: فأقبل عليه عبد الله فسبّه سباً سيئاً، ما سمعته سبه مثله قط، وقال: أخبرك عن رسول الله وتقول: والله لنمنعهن"^{٧٩}. ونرى أن ابن عمر قد أعلّى في سبه وله وجه في ذلك لاعتراضه على نص صريح صحيح، وأراد أن يزرجه وينهاه البتة، وليس هذا في مقام المذنب العائد وهو معلوم.

٧. كلما ذهبت إلى إيجاد فرصة لتنمية المسؤولية الذاتية والرقابة الفردية كانت أجدى وأعظم في مثل هذه الآفات، فابذل قصارى جهدك في زرع بذور الرقابة الذاتية والمسؤولية الفردية في نفس المدعو، وهذا يحتاج لبسط أكثر وطرح أعمق، ولكن نكتفي هنا بالإشارة لأهمية تعليقه بنصوص الوحيين، وأن يبحث في أسماء الله الحسنى ويتدبرها، وأن يُرشد لطرائق عملية في محاسبة النفس وكيفية تجفيف مشارب المعصية وتضييق طرقها.

٨. مراعاة حاجة الاستطلاع في نفس المترابي وإعانتته على ذلك بالطرق السليمة والمتنوعة والذي تتشوف له نفسه. (إن اهتمام المربي بمجال الاستطلاع عموماً، والتعامل مع المراهق فيما يتعلق باستطلاعاته، وفضوله، ورغبته للاكتشاف والمعرفة أمر ضروري وهام. ولمساعدة المربي في هذا المجال الحيوي المؤثر يمكن أن نقترح عليه التخطيط والعمل في ثلاث دوائر متداخلة ومتساعدة. على أن ينظر إلى هذه الدوائر مجتمعة لا منفصلة؛ فلا يأخذ المربي واحدة دون الأخرى؛ إذ أن التربية في هذه الحالة ستكون ناقصة وغير مجدية. وهذه الدوائر هي:

١. حماية المراهق من التعرض للاستهواء بسبب الاستطلاع.

٢. تنمية قدرة المراهق على ضبط الاستطلاع.

٣. تلبية حاجة المراهق للاستطلاع بالطرق الطبيعية السليمة)^{٨٠}.

٩. لتعلم أيها الفاضل أن للذنوب ثمرات ومحاسن تصرف العبد لخير ونفع، فقد روى مسلم في صحيحه: "والذي نفسي بيده لا يقضي الله للمؤمن قضاء إلا كان خيراً له، وليس ذلك إلا للمؤمن". قال ابن القيم: فسألت شيخنا: هل يدخل في ذلك قضاء الذنب؟ فقال: نعم بشرطه. قال: فأجمل في لفظه (بشرطه) ما يترتب على الذنب من الآثار المحبوبة لله من التوبة والانكسار والندم والخضوع والذل والبكاء وغير ذلك^{٨١}. ومما ذكر رحمه الله من ثمراتها: (جريان الحكم،

^{٧٧} "نحو تربية إسلامية راشدة" لمحمد شاکر الشریف، ص ١٤٩.

^{٧٨} عون المعبود (٩٥-٩٤/١١).

^{٧٩} رواه مسلم (٦٦٧)

^{٨٠} "المراهقون" لعبد العزيز النغمشي، ص ١٢٥.

^{٨١} "الفوائد"، ص ١٤١.

وإظهار عز الربوبية وذل العبودية وكمال الاحتياج، وظهور آثار أسماء الله الحسنى: كالغفور والغفور والتواب والحليم، لمن جاء تائباً نادماً، والمنتقم والعدل وذي البطش الشديد لمن أصر، فهو سبحانه يريد أن يُري عبده تفرده بالكمال ونقص العبد وحاجته إليه. فقله كم في تقدير الذنب من حكمة وكم فيه مع تحقيق التوبة للعبد من مصلحة ورحمة، ولولا الذنب لهلك ابن آدم من العجب، وذنوب يذل به أحب إليه من طاعة يدل بها عليه^{٨٢}، فإذا علمت ذلك لم يكن لك أن تقوم على الناس بغير المنهج الرباني وخاصة مع المذنبين فاصنع من تلك السقطات حباً واثقة للسماء، تستغل فيها دمعات التائبين وأوبة العائدين، ووجل الخائفين، وليظهر ذلك في كلامك وعلى سلوكك وبين ثنايا توجيهك وإرشادك، وأن تحدث لهم فرقاً عن غيرك بهذا المفهوم العظيم الذي لا يبني مفاوز بينهم وبين خالقهم جل وعلا.

١٠. لا تجعل من نفسك طبيياً وواصفاً لكل سقطة وزلة، فبقاؤك هكذا يفقد أثر حديثك، وربما يتساهل من حولك في بث وقعاتهم وأخطائهم، ولكن أبق كلامك عاماً، واعتذر من سماع التفاصيل والسقطات، فغرمها عليك وعلى الشاكي. وقد يدخل ذلك في حديث النبي صلى الله عليه وسلم: "كل أمتي معافي إلا المجاهرين وإن من الجهار أن يعمل الرجل بالليل عملاً ثم يصبح وقد ستره الله تعالى فيقول: عملت البارحة كذا وكذا وقد بات يستره ربه ويصبح يكشف ستر الله عنه"^{٨٣}. ومن المهم هنا دعوة المدعو إلى ستر نفسه وعدم الحديث عنها حتى ولو من باب الشكاية وعرض الحال، فهذه الأمور مما يستقبح ذكرها، ويكره عرضها على البشر الذين لا حول ولا قوة لهم إلا بالعزیز الحكيم، فالأولى في مثل من وقع في ذلك أن يعرض عن ذلك ويبث شكواه لخالقه، وإن لزمه الشورى والسؤال فلتكن بالتعريض في المقال، وليفهم ذلك الداعية والمربي فلا يغرق في السؤال والتفاصيل والجزئيات.

١١. كن رقيقاً رحيماً في أسلوبك وحرصك وحوارك، ولا تكن فضاءً فيعرض عنك. ولا يكن رفقك هذا معيناً طريقاً للجرأة على الذنب واقتراف المعصية، بل معيناً للتوبة ودفع المذنب للطاعات وترك المهلكات. لتدبر قول الحق تعالى: (لَقَدْ جَاءكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ). سورة التوبة: ١٢٨. (وليس من الرفق بالمؤمنين إعتانهم على المعاصي والمحرمات، وإنما الرفق بهم تعليمهم الدين وأحكامه، والحث على فعل ما ينفعهم في الدين والدنيا ولو كرهه من كرهه؛ كما ينبغي أن يرفق بهم في الدعوة إلى الرشد والهدى، فقد أمر تعالى موسى وهارون عليهما السلام أن يستعملا الرفق واللين مع فرعون مع أنه أظغى الطغاة، فقال تعالى: (أذهباً إلى فرعون إنه طغى* فقولاً له قولاً لينا لعله يتذكر أو يخشى)^{٨٤}. ومع علم الله أنه لن ينفعه هذا الأمر والنهي، ولكن ليبين الطريق التي ينبغي أن ينتهجها الداعون والأمرون والناهون. عن عائشة عن النبي: "إن الرفق لا يكون في شيء إلا زانه، ولا يُزرع من شيء إلا شانه"^{٨٥}. وقال: "يا عائشة! إن الله رقيق يحب الرفق، ويعطي على الرفق ما لا يعطي على العنف، وما لا يعطي على ما سواه"^{٨٦}. وعن أنس بن مالك قال: إن كانت الأمة من إماء أهل المدينة لتأخذ بيد رسول الله صلى الله عليه وسلم فتنطلق به حيث شاءت^{٨٧}. فلتكن رحوماً بالمدعويين عطوفاً تقبلهم كما هم وتحب أن تنتشلهم مما هم فيه كحباك أن تنقذ غريقاً من أوسط أهلك، وهكذا

^{٨٢} "الفوائد"، ص ١٠٦.

^{٨٣} رواه البخاري (٦٠٦٩) ومسلم (٢٩٩٠).

^{٨٤} "حديث إن الله رقيق يحب الرفق" لفالح الصغير، ص ٦٧.

^{٨٥} رواه مسلم (٢٥٩٤).

^{٨٦} "رواه مسلم (٢٥٩٣).

^{٨٧} رواه البخاري (٦٠٧٢).

الداعية الصادق والمربي القدير. وقد قال الإمام أحمد حدثنا يزيد بن هارون حدثنا جرير حدثنا سليم بن عامر عن أبي أمامة أن فتى شاباً أتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله ائذن لي بالزنا فأقبل القوم عليه فزجروه وقالوا: مه مه، فقال: "أدنه"، فدنا منه قريباً فقال: "اجلس"، فجلس فقال: "أتحبه لأمك"؟ قال لا والله، جعلني الله فداك، قال: "ولا الناس يحبونه لأمهاتهم"، قال: "أفتحبه لابنتك"؟ قال لا والله يا رسول الله، جعلني الله فداك، قال: "ولا الناس يحبونه لبناتهم"، قال: "أفتحبه لأختك"؟ قال لا والله، جعلني الله فداك، قال: "ولا الناس يحبونه لأخواتهم"، قال: "أفتحبه لعمتك"؟ قال لا والله، جعلني الله فداك، قال: "ولا الناس يحبونه لعماتهم"، قال: "أفتحبه لخاليتك"؟ قال لا والله، جعلني الله فداك، قال: "ولا الناس يحبونه لخالاتهم"، قال فوضع يده عليه وقال: "اللهم اغفر ذنبه وطهر قلبه وأحصن فرجه"، قال فلم يكن بعد ذلك الفتى يلتفت إلى شيء^{٨٨}، من الفوائد التربوية في حديث مريد الزنا^{٨٩}:

- عدم الزجر، والسماح بالجلوس تمهيداً للمعالجة.
- استخدام الحوار، وهو أدهى لفتح الفكر والوجدان، فنتقارب الأفكار وتأتي الحلول السليمة.
- تناول صلب المشكلة، ولم يبتعد عنها.
- اختيار الأسئلة المناسبة، والدليل إجابة المتعلم بالنفي وحصول التفاعل الحقيقي بين المعلم والمتعلم.
- وضع الرسول يده على صدر صاحب المشكلة، وهي تشعر بالاطمئنان والارتياح النفسي.
- الدعوات الشاملة التي دعا بهي النبي لهذا الشاب، ولم يقتصر فقط على تحصين الفرج.

المراهق ضعيف السلاح وقدرته الوقائية هشة لينة، وهو بعد لم يستخدم المحاكمة العقلية والتفرس في المواقف، ومع مغريات الغريزة الجنسية ومثيرات الغريزة العاطفية تؤدي بكثير من المراهقين للانحراف. والمربي باستطاعته حبس الفتى أو الفتاة عن بلوغ مراده أو بعض مراده، ولكن لا يستمر ذلك لأن العاطفة تزيد والغريزة تتضاعف والأعضاء تنمو، فلا بد للمربي أن يربي المراهق على المصارحة والمكاشفة، وهي أساس لإكساب الثقة وبت الطمأنينة، ثم يوجهه للمصابرة والمجاهدة^{٩٠}. وهذا لا يتعارض مع الإبقاء على عدم الاسترسال في سماع تفاصيل المعصية وجزئياتها، بل يكتفى بالمهم كما هو الحال في حديث مريد الزنا.

١٢. لا تجعل من حديثك استعداداً واستنقاصاً وتهكم بمن وقع وزل. وكن كما (قال بكر بن عبدالله: إذا رأيت من هو أكبر منك فقل هذا سبقني بالإيمان والعمل الصالح فهو خير مني، وإذا رأيت من هو أصغر منك فقل: سبقته إلى الذنوب والمعاصي فهو خير مني، وإذا رأيت إخوانك يكرمونك ويعظمونك فقل: هذا فضل أخذوا به، وإذا رأيت منهم تقصيراً فقل: هذا ذنبٌ أحدثته)^{٩١}. وعن النبي صلى الله عليه وسلم: "من رأى مبتلىً فقال: الحمد لله الذي عافاني مما ابتلاك به وفضلني على كثير ممن خلق تفضيلاً؛ لم يصبه البلاء"^{٩٢}. قال النووي: (يقول بعض أهل العلم أنه ينبغي أن يقول هنا الذكر سراً، بحيث يسمع نفسه ولا يسمعه المبتلى؛ لئلا يتألم قلبه بذلك، إلا أن تكون بليته معصية فلا بأس أن يسمعه ذلك إن لم يخف من ذلك مفسدة)^{٩٣}. وهنا يأتي معنى مهم وهو أن لا يأمن المؤمن على نفسه ويلات الشهوات وخطوات الشيطان،

^{٨٨} رواه الإمام أحمد (٢٢٢١١).

^{٨٩} من أساليب الرسول التربوية لنجيب العامر، ص ١٠٥.

^{٩٠} "المراهقون" لعبد العزيز النغمشي، ص ٥٥ بتصرف.

^{٩١} "صفة الصفوة" (٢٤٨/٣).

^{٩٢} حسنة الألباني في الجامع الصغير ١٥٧/١ (٥٥٥).

^{٩٣} "الأذكار"، ص ٢٥٨.

وليكن دائم الحذر والترصد لهفوات النفس وإملاءات الشيطان وكلايب الشهوات مهما كان إيمانه ومكانته، (ويروى أنه كان بمصر رجل يلزم المسجد للأذان والصلاة فيه، وعليه بهاء الطاعة ونور العبادة، فرقي يوماً المنارة على عادته للأذان، وكان تحت المنارة دار لنصراني، فاطلع فيها فرأى ابنة صاحب الدار، فافتتن بها، فترك الأذان ونزل إليها، ودخل الدار عليها، فقالت له: ما شأنك؟ وما تريد؟ قال: أريدك. قالت: لماذا؟ قال: قد سلبت لبي وأخذتني بمجامع قلبي، قالت: لا أجيبك إلى ربية أبداً، قال: أتزوجك، قالت: أنت مسلم وأنا نصرانية، وأبي لا يزوجني منك، قال: أنتصر، قالت: إن فعلت افعل، فتنصر الرجل ليتزوجها، وأقام معهم في الدار، فلما كان في أثناء ذلك اليوم، رقي إلى سطح كان في الدار فسقط منه فمات. فلم يظفر بها، وفاته دينه)^{٩٤}. وإن من المهالك أن يأمن الفرد على نفسه، ويزيد على ذلك أن يزدري من وقع ويظهر العيب والتهم بهم، ولا يدرك عظم فعله وشناعة مذهبه، فقد قال الصادق المصدوق في الحديث الصحيح: "لا تظهرن الشماتة لأخيك فيرحمه الله وبيبتليك"^{٩٥}، وروي عن النخعي أنه قال: (إني أرى الشيء مما يُعاب فما يمنعي أن أعيبه إلا مخافة أن أبتلى به)^{٩٦}، وهذا أيضاً في حق المترابي الناسك أن ينبهه المربي لمثل هذا المعنى وأن يغرس فيه عدم الاغترار بصلاحه وطاعته، وأن لا يقع في عرض إخوانه والترفع عن لوحظ عليه شيء من ذلك الأذى بل يحمد الله ويجتنب ذلك ويستمر في القرب من الله واللجوء إليه والنصح لنفسه ولغيره. قال ابن القيم في الفوائد: قال شقيق بن إبراهيم رحمه الله: أغلق باب التوفيق عن الخلق من ستة أشياء:

- اشتغالهم بالنعمة عن شكرها.
- رغبتهم بالعلم وتركهم العمل.
- المسارعة إلى الذنب وتأخير التوبة.
- الاغترار بصحبة الصالحين وترك الاقتداء بأفعالهم.
- إدبار الدنيا عنهم وهم يتبعونها.
- إقبال الآخرة عليهم وهم معرضون عنها.

١٣. ليحرص المربي ورب الأسرة وكل من له يد فيمن يعول أن يهيء لهم البيئة المجتمعية والتربوية لتكن صالحة للتربية والنشأة الصالحة، وهذا في حق الجنسين سواء، ومن المهم جداً تهيئة هذه البيئة من الفرد نفسه وكذلك ممن يقوم على رعايته أو شؤونه سواء ولي أمره أو مربيه أو مدير مدرسته أو مسؤوله في العمل، ويتعين أيضاً في كل من تنصب عليه مسؤولية ذلك والقدرة عليها في شتى السبل والطرائق والأحوال والأماكن. فعلى الجميع إزالة كل ما يذكر وينبه للمعصية وثير الدافعية لها من تلفاز وقنوات مفتوحة ومواقع مشبوهة وغيرها؛ (لأن في كل نفس استعداد وقابلية لارتكاب المعاصي قال تعالى: "ونفس ماسوها فألهمها فجورها وتقواها"، فالنفس تحمل جرائم المعاصي وهذه الجرائم تكون مقهورة مغلوبة مادام القلب في صحة وعافية معمورة بالإيمان. فإذا ضعف لأي سبب كان، ووجدت هذه الجرائم المناخ الملائم انتعشت ونمت وظهرت فعاليتها كما يحصل لجرائم الجسد. ومن المناخ الملائم لجرائم المعاصي كل المهيجات للمعصية من المرئيات والملبوسات والمسموعات والمطعمات، والقراءات ولكل واحد من هذه المهيجات إذا أهاج شهوتك دفعتك نحو المعصية،

^{٩٤} "الداء والدواء"، ص ١١٨.

^{٩٥} رواه الترمذي.

^{٩٦} "صفة الصفوة" (١٩/٣).

وأنتسك ذكر الله، فمن المناخ الملائم لجراثيم المعاصي النساء الكاسيات العاريات، والغناء الفاحش القبيح والمخالطات المحرمة، وارتياح محلات أهل الغفلة وسماع كلام أهل الدنيا. كل هذا وأمثاله يقوي جرثومة المعصية وحتى تكون هي القاهرة الغالبة، بعد أن كانت مقهورة مغلوبة، وبالتالي يواقع المعصية وينغمس فيها. أما المناخ الملائم لإضعاف جرثومة المعصية فهو كل شيء يقوي فيه معاني الإيمان والعلم الحق بالله واليوم الآخر، ويبصرك طريق الآخرة، فصحتك للطيبين العاملين للإسلام والداعين إلى الله من أكبر الحصون لنفسك ولإيمانك، وبالتالي لإضعاف جرثومة المعصية، وأخيراً فإن من الوقاية أن لا يستصغر المسلم ذنباً مهما كان صغيراً فإن الحزمة من الحطب تتكون من عيدان، وأن لا يعرض نفسه إلى ما يضعف إيمانه ويقوي فيه جرثومة المعصية، اعتماداً منه على قوته وعافيته، فليس من العقل أن يعرض نفسه لجرثومة السل ويعشى محلات المسوليين بحجة أنه قوي صحيح البدن^{٩٧}.

ويهمنا في هذا الموضوع ثلاثة أمور:

أ. الرفقة الصالحة قال صلى الله عليه وسلم: "المرء على دين خليله فلينظر أحدكم من يخالل" رواه الترمذي، وقال: "المرء مع من أحب" متفق عليه. (لذا يتجه المراهقون إلى أقرانهم وزملائهم المقربين لهم في السن ليكونوا رفقة واحدة تشترك فيها أشياء كثيرة من أهمها التشابه في التحولات الجسدية والعضوية والنفسية والعقلية والاجتماعية، والتشابه في المعاناة والمشكلات، والتشابه في الموقف من الكبار. وينضم أيضاً وحدة التجربة ونوع الخبرة التي تكتسب. وبهذا تعد طبقة الأقران أحد المصادر المهمة والمفضلة عند المراهقين للاقتداء واستقاء الآراء والأفكار، وتعد هي الأكثر تقبلاً بين سائر طبقات المجتمع)^{٩٨}.

عن المرء لا تسل وسل عن قرينه فكل قرين بالمقارن يفقدي

(وحتى يكون المربي البيئة المناسبة والرفقة الصالحة للمترابين، هنا بعض التنبيهات وتهم الأب بشكل كبير:

- معرفة المربي بشروط الرفقة الصالحة وصفاتها، ومنها: الخيرية والثقافة الإسلامية والالتزان والتعقل والانسجام وأخيراً المحيط والبيئة.
- الانتباه المبكر والتهيئة المسبقة.
- التهيئة لوجود الرفقة الصالحة.
- ربط المراهق بالأنشطة الجادة والهادفة.
- الاستعانة بذوي العلم والخبرة.
- المتابعة غير المباشرة.
- التحكم في نظام الأسرة وفي البرنامج اليومي حسب ثوابت متفق عليها.
- إكرام الرفقة الصالحة)^{٩٩}.

ب. المكان الذي يتربى فيه والحال التي يعيشها. وفي هذا يتعين على المربي أن يقيم من يعول في بيئة سوية خالية من المؤثرات والفتن، وليحرص على تقويم ما اعوج من أبنائه أو من يقوم بتربيتهم، ويكن دائم التهذيب والتزكية، فيصون الابن من السفر للخارج والعيش في مستنقعات الرذيلة، وغرس الغيرة

^{٩٧} أصول الدعوة لعبد الكريم زيدان، ص ٤٠٨ ص ٤٠٩.

^{٩٨} "المراهقون" لعبد العزيز النغمشي، ص ٦٤.

^{٩٩} "المراهقون" لعبد العزيز النغمشي، ص ٧٤.

في نفسه على ذاته وأهل بيته وسائر المسلمين والمسلمات، وليكن شريك والده في الحفاظ على أخواته والقيام على شؤونهن بالمعروف، وكذلك الفتاه فلينتبه لها في ذلك، وحقهن أولى وأعظم لما أوردته النصوص، ثم لغياب الرقابة خاصة في مرحلة المراهقة فقد رأينا ما يقطع نياط القلب من تفلتهن وممارستهن كثيراً من المنكرات، (ومن المنكرات المتعلقة بالنساء هي الاختلاط بين الرجال الأجانب والنساء: وهو محرم سواء داخل البيت أو خارجه، وصوره كثيرة منها النظر، ومنها المصافحة، ومنها الخلوة، ومنها الكلام البريء، ومنها التساهل بالرجال الأقارب. في حديث ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم: "لا يخلون رجل بامرأة ولا تسافرن امرأة مع ذي محرم"^{١٠٠}. ومنها أيضاً التبرج والسفور وهو خروج المرأة من بيتها متبرجة متعطرة فاتنة مفتونة تظهر ما أمر الله بستره من زينتها وعورتها، فتخرج لغير حاجة، أو تخرج مع سائق ونحوه وليس من محارمها وقد قال الله تعالى: "وقرن في بيوتكن ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى" سورة الأحزاب: ٣٣. وفتنة النساء اليوم على أشدها لا سيما أن جيلنا يعيش عصر الإعلام المؤثر بكل صورته المقروءة والمسموعة والمرئية، وأصبحت السلامة من هذه الفتنة أمراً عسيراً إلا من رحم الله، واستغل ذلك أعداء الإسلام فتفننوا في تزيين الشهوات بكل صور الإغراء لتفكيك وإغواء الأسرة المسلمة وإضعاف المجتمع الإسلامي، ومن ثم تقويض صرح الإسلام، والله بما يعملون محيط. لذا كان قيام أفراد الأسرة المسلمة كل بحسب قدرته وموقعه ومسؤوليته- بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والمناصحة والتذكير والتواصي بالحق والتواصي بالصبر أمراً لا مندوحة عنه، سلوكاً لنهج المسلمين ودرءاً للأخطار الاجتماعية والأخلاقية والاقتصادية والثقافية المدمرة التي تحيق بالأسرة فالمجتمع فالأمة إن توانى المسلمون في إقامة هذه الشعيرة الإسلامية الجليلة)^{١٠١}. ومن أسباب الفساد الديانة ومثل ذلك من يرى امرأته تخرج بزینتها ولا ينكر عليها ولا يغار على محارمه ومثله من يرى زوجته أو أهله وهم ينظرون إلى الرجال عبر التلفاز أو يسمع أهله أو ابنته وهي تحادث أحداً على الهاتف أو غير ذلك -والله المستعان-^{١٠٢}. قال صلى الله عليه وسلم في ذم الديوث وعقوبته: "ثلاثة لا ينظر الله تعالى إليهم يوم القيامة العاق لوالديه والمرأة المترجلة والديوث"^{١٠٣}. قال سعد رضي الله عنه: لو رأيت رجلاً مع امرأتي لضربته بالسيف. قال صلى الله عليه وسلم: "أتعجبون من غيرة سعد والله لأنا أغير منه والله أغير منه"^{١٠٤}.

ت. الوسائل التي تبني هوية الشاب أو الشابة والتي تساهم في رصف عقله، وتنمية قدراته. (ويمكن تحديد الجوانب العملية لتربية الهوية السوية في ثلاثة عناصر متساوية هي:

١. التأكيد على أهمية وحدة الشخصية، وأهمية ثباتها على المبدأ.
٢. بناء هوية المراهق من خلال التنشئة الاجتماعية الإسلامية، وفق المعايير والضوابط الشرعية المحددة في المصادر الإسلامية.
٣. اعتماد الأساليب التربوية المتنوعة والملائمة في تربية هوية المراهق وتأسيسها)^{١٠٥}.

وهذا شكل يبين الجهات المتعددة التي تشترك فيها الهوية^{١٠٦}:

^{١٠٠} رواه البخاري (٣٠٠٦)، ورواه مسلم (١٣٤١).

^{١٠١} "مسؤولية الآباء تجاه الأولاد" لعبدالرب آل نواب، ص ١٥٨ ص ١٦٠ بتصرف.

^{١٠٢} "معالم على طريق العفة" لعبدالله الوطبان، ص ٢٣.

^{١٠٣} رواه أحمد والنسائي وصححه أحمد شاكر.

^{١٠٤} رواه البخاري ومسلم.

^{١٠٥} "المراهقون" لعبد العزيز النغمشي، ص ١٥٩.

^{١٠٦} "المراهقون" لعبد العزيز النغمشي، ص ١٦٥.

الهوية

المؤسسات الأخرى	النظر والتأمل	الأسرة	الرفقة	المدرسة	المؤسسات الشبابية	الإعلام	الوسط الاجتماعي	المسجد	الفرد
--------------------	------------------	--------	--------	---------	----------------------	---------	--------------------	--------	-------

فليكن المربي منها على تيقظ وحذر، وليساهم في تقنينها مع مجتمع المربين عموماً ومع المبتلى خصوصاً فكل منها ذو أثر ومعنى واضح في نمذجة الهوية الصحيحة واستقامتها.

١٤. كن حاضر البديهة مع من تربي ومن تدعو ولا تدعهم هكذا دون توجيه وتنبية وتذكير، فالبعض يكتفي بذلك في المجالس والندوات، ويعرض عن ذلك إذا ما لاحظ ريبة أو شيئاً يحتاج تنبيهاً وقائياً أو علاجياً. عن عبد الله بن عباس أنه قال: كان الفضل بن عباس رضي الله عنه رديف رسول الله صلى الله عليه وسلم فجاءته امرأة من خثعم تستفتيه فجعل الفضل ينظر إليها وتنظر إليه فجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم يصرف وجه الفضل إلى الشق الآخر قالت يا رسول الله إن فريضة الله على عباده في الحج أدركت أبي شيخاً كبيراً لا يستطيع أن يثبت على الراحلة أفأحج عنه قال: نعم وذلك في حجة الوداع. رواه مسلم، وعن وكيع قال: خرجنا مع الثوري في يوم عيد فقال: إن أول ما نبدأ به في يومنا هذا غض البصر^{١٠٧}. قال ابن أبي شيبة: حدثنا حسين بن علي عن موسى الجهني قال: كنت مع سعيد بن جبير في طريق فاستقبلتنا امرأة فنظرنا إليها جميعاً قال: ثم إن سعيداً غض بصره فنظرت إليها قال: فقال لي سعيد: الأولى لك والثانية عليك^{١٠٨}. إذا علم ذلك في سلفنا مع تباين المغريات والقلوب فهو عندنا أوجب وأحق وأولى، فأنت تراه أكثر الجلوس على الانترنت أو يسترق النظر يمينه ويسرة أو في نزولكم لأداء أحد مناسك العمرة والحج وهذه كلها مظان وقوع الزيغ وطيش البصر فيلزمك حينئذ التوجيه بأسلوب مقبول حسب قبولك عند المربي وحظك عنده، ومدى عنايته بالقرآن والسنة.

وقد روى الطبراني أن خوات بن جبير - رضي الله عنه - قال: «نزلنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم مرَّ الظهران، قال: فخرجت من خبائي فإذا أنا بنسوة يتحدثن، فأعجبني، فرجعت فاستخرجت عييتي فاستخرجت منها حلة فلبستها، وجئت فجلست معهن، وخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم من قبتة فقال: أبا عبد الله، ما يجلسك معهن؟ فلما رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم هيبته، واختلطت، قلت: يا رسول الله، جمل لي شرد فأنا أبتغي له قيده، فمضى واتبعته، فألقى رداءه ودخل الأراك كأنني أنظر إلى بياض متنه في خضرة الأراك، ففقت حاجته وتوضاً فأقبل ظاهراً (راجعاً) يسيل من لحيته على صدره أو قال يقطر من لحيته على صدره، فقال صلى الله عليه وسلم: «أبا عبد الله، ما فعل شراد جملك؟»، ثم ارتحلنا، فجعل لا يلحقني في المسير إلا قال: «السلام عليك أبا عبد الله، ما فعل شراد ذلك الجمل؟»، فلما رأيت ذلك تعجلت إلى المدينة واجتنبت المسجد والمجالسة إلى النبي صلى الله عليه وسلم، فلما طال ذلك تحينت ساعة خلوة المسجد فأتيت المسجد ففقت أصلي، وخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم من بعض حجره فجأة فصلى ركعتين خفيفتين وطولت رجاء أن يذهب ويدعني، فقال: طول أبا عبد الله ما شئت أن تطول فلست قائماً حتى تنصرف، فقلت في نفسي: والله لأعذرنَّ

^{١٠٧} "حلية الأولياء" (٧ / ٢٣).

^{١٠٨} رواه ابن أبي شيبة (١٧٢١٩).

إلى رسول الله ولأبرئ صدره، فلما قال: "السلام عليك أبا عبد الله ما فعل شراد ذلك الجمل؟"، فقلت: والذي بعثك بالحق ما شرد ذلك الجمل منذ أسلمت، فقال صلى الله عليه وسلم: "رحمك الله ثلاثاً، ثم لم يعد لشيء مما كان"^{١٠٩}. وفي هذه القصة فوائد:

- التثبت قبل بدء النصيح أو الحكم على الشخص.
- انتباه المربي وعدم تأخير النصيحة؛ لأن هذا قد يسوغ إقرار الفعل أحياناً.
- التعريض بأسلوب فيه دعابة وتلميح تحفظ ماء الوجه، وتعين الفرد على المحاسبة والأوبة.

١٥. على المربي والداعية أن يتحليا بالستر وكف الحديث عن المبتلى وإعانتته بكل طريقة ووسيلة مشروعة، وليبتعدوا عن الظن وبحث القرائن الزائفة، والحديث عن شخص ما في مجمع من الناس والبعد كل البعد عن كل وسيلة قد تؤدي بهذا المبتلى وتوقعه في أعظم من وقيعته (إن ثبتت) من كشف لستره أو تأنيب حاد، وأن لا يحكموا على أحد في عرضه إلا بيقين ودليل قائم، قال تعالى: "يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيراً من الظن .. الحجرات: ١٢. قال ابن رجب في قوله: "إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ". النور: ١٩: والمراد إشاعة الفاحشة على المؤمن المستتر فيما وقع منه أو اتهم به وهو بريء منه. وقال الفضيل: المؤمن يستر وينصح، والفاجر يهتك ويعير"^{١١٠}. وعن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "من ستر عورة أخيه المسلم ستر الله عورته يوم القيامة، ومن كشف عورة أخيه المسلم كشف الله عورته حتى يفضحه بها في بيته"^{١١١}. وقال: "إنك إن اتبعت عورات الناس أفسدتهم أو كدت تفسدهم"^{١١٢}. وأخرج أحمد في المسند وغيره عن نعيم بن هزال: أن هزالاً كان قد استأجر ماعزاً بن مالك وكانت له جارية يقال لها: فاطمة، قد أملكته، وكانت ترعى غنماً لهم، وأن ماعزاً وقع عليها، فأخبر هزالاً فخدعه، فقل: انطلق إلى النبي صلى الله عليه وسلم فأخبره، عسى أن ينزل فيك قرآن، فأمر به النبي فرجم، فقال النبي: "ويلك يا هزال لو كنت سترته بثوبك كان خيراً لك"^{١١٣}. وقوله فخدعه هزال لأنه كان يعلم حد الزنا ويدري أنه إذا ذهب إلى النبي سيقم عليه الحد. وقال: (خيراً لك) ولم يقل: (خيراً له)، لأن الأجر العظيم سيكون للساتر على أخيه المسلم. ومر أبو الدرداء على رجل قد أصاب ذنباً فكانوا يسبون، فقال: أرأيتم لو وجدتموه في قليب ألم تكونوا مستخرجيه؟ قالوا: بلى، قال: فلا تسبوا أحاكم، واحمدوا الله الذي عافاكم، قالوا: أفلا نبغضه؟ قال إنما أبغض عمله، فإذا تركه فهو أخي"^{١١٤}. وقال ابن مسعود: "إذا رأيتم من قارف ذنباً فلا تكونوا أعواناً للشيطان عليه، تقولون: اللهم اخزه، اللهم عنه، ولكن سلوا الله العافية، فإن أصحاب محمد كنا لا نقول في أحد شيئاً حتى نعلم على ما يموت فإن ختم له بخير علمنا أنه قد أصاب خيراً، وإن ختم له بشر خفنا عليه عمله"^{١١٥}. وهذا عمر رضي الله عنه "الذي اشتهر بالقوة، يستخدم الرقة في مواطنها؛ وذلك بأن رجلاً كان ذا بأس وكان يفد إلى عمر، وكان من أهل الشام، وإن عمر فقده، فسأل عنه، فقيل له: تتابع في هذا

^{١٠٩} أخرجه الطبراني في المعجم الكبير: ٢٠٣/٤ .

^{١١٠} "جامع العلوم والحكم" (٢٩٢/٢).

^{١١١} صححه الألباني في صحيح ابن ماجه، وبعضه في مسلم

^{١١٢} صححه الألباني في سنن أبي داود

^{١١٣} قال شعيب في الموسوعة صحيح لغيره ٢١٨/٣٦

^{١١٤} أخرجه عبدالرزاق في المصنف (٢٠٢٦٧)، والبيهقي في الشعب (٦٢٦٤).

^{١١٥} أخرجه عبدالرزاق في المصنف (٢٠٢٦٦)، والبيهقي في الشعب (٦٢٦٥).

الشراب: فدعا كاتبه فقال: اكتب: من عمر بن الخطاب إلى فلان سلام عليك فإني أحمد الله الذي لا إله إلا هو غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب ذي الطول لا إله إلا هو إليه المصير. ثم دعا وأمن من عنده، ودعا له أن يقبل على الله بقلبه وأن يتوب عليه، فلما أتت صحيفة الرجل جعل يقرأها ويقول: غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب قد حذرتني الله عقابه، ذي الطول والطول الخير الكثير لا إله إلا هو إليه المصير. فلم يزل يرددتها على نفسه ثم بكى، ثم نزع فأحسن النزع، فلما بلغ عمر أمره فقال: هكذا فاصنعوا إذا رأيتم أماً لكم زلة زلو فسدوده ووقفوه وادعوا الله أن يتوب عليه، ولا تكونوا أعاوناً للشيطان عليه" ^{١١٦}.

١٦. التلميح والتقريب أسلوب لا مثيل له وخاصة في الخطأ الفردي المباشر، وهو أكثر إعانة للمبتلى على إيقاظه وحفظ ماء وجهه، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "ما بال أقوام قالوا كذا وكذا؟ ولكني أصلي وأنام، وأصوم وأفطر، وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنتي فليس مني" ^{١١٧}. وعن أنس بن مالك حدثهم قال: قال النبي: "ما بال أقوام يرفعون أبصارهم إلى الماء في صلاتهم. فاشتد قوله في ذلك حتى قال: لينتهين عن ذلك أو لتخطفن أبصارهم" ^{١١٨}. ومن الفوائد التربوية للتعريض بالخطأ ^{١١٩}:

- يحفظ درجة شخصية المتعلم عند أصحابه، ولا تصيبه بالإحباط.
- زيادة روابط الثقة والمحبة بين المعلم والمتعلم، وهذا يؤدي إلى استعداده النفسي والفكري لتصحيح خطأه.
- يصحح أخطاء تربوية في متعلمين آخرين.

١٣. على المؤسسات التعليمية والتربوية بناء المناهج والأطر المناسبة في ظل الشريعة الإسلامية والتي تعين في التأسيس المثالي لتبني المقومات الأساسية (الإيمانية والاجتماعية) في الفرد، وتحيطه بالسياج المتين لتمنعه شر هذه الكواسر، وتدعمه أيضاً بالثقافة اللازمة. (إن منبع المشكلات هو هذا الإنسان، هو هذا النقص أساساً في بنائه العلمي والعقلي والإبداعي والاعتقادي والروحي والأخلاقي والاقتصادي والحضاري، والتقصير في بناء الأفراد من تلك النواحي قد أدى إلى التقصير في البناء الاجتماعي للأمة؛ لأن الأمة مجموعة أفراد المجتمع، وما الأفراد إلا لبنات المجتمع. وسبب التقصير في بناء المجتمع هو التقصير في بناء المناهج التعليمية والتربوية؛ لأن الأمة تكون كما يكون مناهج تعليمها وتربيتها. ولقد صدق القائل عندما سئل؛ فما مستقبل هذه الأمة؟ فقال: أعطوني مناهج تعليمها لأقول بمستقبلها) ^{١٢٠}. ومن الضرورات الملحة (وهذا يضاف مع البناء والوقاء والعلاج الإيماني والتربوي) التنقيف الجنسية عن طريق التربية الجنسية (والتربية الجنسية هي التي تمد الفرد بالمعلومات العلمية والخبرات الصالحة والاتجاهات السليمة إزاء المسائل الجنسية،

بقدر ما يسمح نموه، وفي إطار التعاليم الدينية والمعايير الاجتماعية والقيم الخلقية السائدة في المجتمع؛ مما يؤهله لحسن التوافق في المواقف الجنسية ومواجهة مشكلاته الجنسية في الحاضر والمستقبل مواجهة واقعية، تؤدي إلى الصحة النفسية. ومن الأفكار الخاطئة والشائعة عند المربين والوالدين ما يلي:

- § التربية الجنسية تزيد من فضول الأطفال والمراهقين.
- § التربية الجنسية تؤدي إلى التجريب والإفراط في السلوك الجنسي المتحرر من المسؤولية.

^{١١٦} أخرجه البيهقي في الشعب (٦٢٦٣).

^{١١٧} صحيح الجامع الصغير ج ٥ (٥٤٤٨).

^{١١٨} رواه البخاري (٧٥٠).

^{١١٩} "من أساليب الرسول في التربية" لنجيب العامر، ص ٣٠

^{١٢٠} "منابع مشكلات الأمة الإسلامية والعالم المعاصر" لمقداد بالج، ص ٤٦

ومن المسلم به أن الكتم والتمويه والتحریم سيؤول بهؤلاء إلى البحث والتنقيب وراء ذلك لإشباع حاجتهم المعرفية من غير أهل العلم والثقة والضمير والأخلاق، وربما اتجهوا إلى ما وراء ذلك من الأفلام الجنسية والصور الجنسية والكتب المثيرة. والنتيجة المؤسفة هي المعلومات الخاطئة والتجريب.

أهداف التربية الجنسية:

- ن تزويد الفرد بالثقافة الجنسية المناسبة وبالمعلومات الصحيحة.
- ن إكساب التعاليم الدينية والمعايير الاجتماعية والقيم الخلقية الخاصة بالسلوك الجنسي.
- ن تعليم الألفاظ العلمية المتصلة بأعضاء التناسل والسلوك الجنسي.
- ن الوقاية من أخطار التجارب النفسية غير المسؤولة.
- ن التعريف بنواحي الشذوذ الجنسي وكيفية الوقاية منها.
- ن تكوين اتجاهات سليمة نحو الأمور الجنسية والنمو الجنسي والتكاثر والحياة الأسرية.
- ن تنمية الضمير الحي فيما يتعلق بأي سلوك جنسي يقوم به الفرد؛ بحيث لا يقوم إلا بما يشعره باحترامه لذاته، ولا يضر أحداً ويتمشى التعاليم الدينية والمعايير الاجتماعية والقيم الخلقية.
- ن تصحيح ما قد يكون من معلومات وأفكار واتجاهات خاطئة أو مشوهة نحو بعض أنماط السلوك الشائع.

وهنا تساؤل مهم: ماذا يجب أن يعرفه الوالدان والمربون؟

- الأطفال لا يظنون أطفالاً بل يكبرون ويبلغون جنسياً.
- القوى الجنسية الضرورية تعمل في نفس الفرد منذ الطفولة.
- الأطفال والمراهقون لديهم حب استطلاع شديد خاصة عما يحدث أثناء الاتصال الجنسي.
- ظهور الدوافع والميول الجنسية عملية حيوية سوية لا بد أن تقع خلال نمو الفرد ونضجه.
- قد ينصرف المراهقون إلى البحث والإطلاع عبر أي وسيلة للأمور الجنسية.
- التربية الجنسية تعتبر حجر الزاوية في الزواج الموفق والسلوك الجنسي المتوافق.

ويقوم بالتربية الجنسية الوالدان والمربون وعلماء الشريعة والأطباء وعلماء النفس كل بحسب اختصاصه الإرشادي والوقائي والعلاجي، ويجب أن تتوافر فيهم الصفات التالية:

- الإلمام بخصائص النمو في جميع المراحل والخصائص العلمية الخاصة بالتناسل والحمل والولادة و...
- فهم مشكلات المراهقة والقدرة على حلها.
- متابعة الدراسات الخاصة بالموضوع.
- الالتزام بالاتجاه العلمي الخاص الهادئ.
- حسن اختيار الألفاظ والبعد عن العامية.
- الاستفادة بالوسائل المعينة المناسبة.
- التمسك بشعار (التوجيه الرشيد والتعبير السديد).
- اتساع الأفق ورحابة الصدر وطول البال والحكمة.
- المرونة والخلو من التزمت والآراء والاتجاهات الجامدة.
- التوافق الجنسي، وأن يكون قد تغلب على مشكلاته الجنسية، فنحن نعلم أن فاقد الشيء لا يعطيه.
- تقديم قدوة حسنة للناشئين.

إن التربية الجنسية عملية مستمرة لا ترتبط بعمر معين، وتقدم في أي مكان المسجد المنزل والمدرسة والجامعة وسائر المؤسسات، وير البعض اقتصار توجيهها على المستوى الفردي؛ ولكن أغلب الرأي في التوجيه الجماعي، مع إعطاء الفرصة للاستيضاحات لاختلاف النضج. ولا يصح أن تعطى المعلومات الجنسية مادة قائمة بذاتها، بل ضمن معلومات أخرى كالأحياء والأدب والدين وغيرها.

ومن أهم الموضوعات التي يجب تقديمها والمعلومات الجنسية الضرورية في مراحل النمو التالية:

- شرح الفروق التشريحية بين الذكر والأنثى.
- تنمية الفخر بالجنس الذي ينتمي إليه الفرد، واحترام الجنس الآخر. فلكل كرامته، ولا يتمنى ما فضل الله به الآخر.
- إعداد الأطفال في مرحلة الطفولة المتأخرة نفسياً لاستقبال التغيرات الفسيولوجية.
- تزويد الفرد بالحقائق عن التكاثر عند الإنسان.
- إعداد الفرد لما سوف يسمعه من أصدقائه، وتصحيح الاتجاهات والأفكار الخاطئة.
- تعليم الأطفال والمراهقين معايير السلوك بصفة والسلوك الجنسي بصفة خاصة كتعريفهم الحدود، والأطر العامة.
- تعريف الأطفال والشباب آداب الاستئذان وآداب النظر.
- تفسير عملية الاتصال الجنسي وأنه يقوم بها المتزوجون فقط، وأن العلاقات الجنسية قبل الزواج تسبب المشكلات أكثر من الحل.
- التعريف بالانحرافات والاضطرابات الجنسية كالإفراط في العادة السرية والجنسية المثلية والبغاء والاستهتار الجنسي...، وبالأضرار الناتجة عنها وأسبابها وطرق الوقاية منها وعلاجها.
- التعريف بالأمراض التناسلية ومدى خطورتها كجزء من دراسة الأمراض المعدية.
- تعريف المراهقين أن الزواج علاقة متعددة الأوجه، ولا تقتصر فقط في العلاقة الجنسية.
- التعريف بالزواج (شهر العسل) وآداب الاتصال الجنسي، وأسس التوافق، وشرح الطلاق وأسباب انهيار الأسرة وتفككها.
- تعريف الفرد أن إثباع الدافع الجنسي يجب أن يسير جنباً إلى جنب مع الحاجة إلى تحقيق الذات واحترامها وتربية الضمير، وتنمية المسؤولية الاجتماعية والدينية.
- تشجيع الشباب على تحدي فلسفة واضحة للحياة، واتخاذ أهداف إيجابية بناءة يسعى الفرد لتحقيقها. مساعدة المراهقين وتوجيههم إلى إعلاء وتصعيد الدافع الجنسي، وتوجيهه في سلوك اجتماعي.
- حماية المراهقين من المؤثرات الاجتماعية المنحرفة حرصاً على الفضائل ودرءاً للردائل. والرقابة الواعية على ما يقدم للمراهقين من مثيرات غير مسؤولة بل ومغرضة، والتمسك بمبدأ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

إن التربية الجنسية ضرورية في الإطار العام للتربية والتعليم في أسرنا ومدارسنا، ويجب أن تكون تنفيذاً تربوياً لخطة علمية مدروسة شاملة يقوم بها فريق من المتخصصين من علماء النفس والتربية والأطباء وعلماء الاجتماع وعلماء الشريعة حيث تلاحظ التعاليم الدينية والمعايير الاجتماعية والقيم الخلقية الخاصة بمجتمعنا. وينصب التأكيد فيها على العلاقات الاجتماعية من الجوانب الخلقية والنفسية للحياة الجنسية، يباركها المجتمع ويشترك فيها الآباء ويرضى عنها الله^{١٢١}. ولا شك أن ذلك من صميم

^{١٢١} "علم نفس النمو" لحامد زهران، ص ٤٤٨ ص ٤٦٣ بتصريف.

قيم الإسلام ومبادئه والتي كانت ولا زالت تستطیع قيادة الحضارة شرقها وغربها إلى بر الأمان وفي هذا يقول مقداد بالجن: إن القيم القادرة على حماية الحضارة من الانهيار وهي القيم الإسلامية، هي القيم الوحيدة القادرة على توجيه الحضارة توجيهاً سليماً^{١٢٢}. على أن الإسلام لا ينقصه الآن سوى تلك الأيدي الماهرة والعقول الباهرة من أبنائه ليقدّموا للعالم الأنموذج المثالي والفريد في تطبیع الحياة البشرية الكريمة وغرس الفضائل السوية والرقي بالأخلاق العلیّة. يقول زغول النجار: أعطوني أربعين شاباً ممن يفهمون هذا الدين فهماً عميقاً ويطبقونه على حياتهم تطبيقاً دقيقاً ويحسنون عرضه على الناس بلغة العصر وأسلوبه وأنا أفتح لكم الأمريكتين^{١٢٣}.

١٧. وهنا أمران مهمان تلقى بها في أحضان المجتمع وبين يدي ساسة المجتمعات:

١. أهمية إقامة الحدود وصيانة الأعراض ومحاسبة كل مسؤول، يقول الرب -تعالى-:(الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةً جَلْدَةً)النور، وقد استمرء كثير الفاحشة والابتزاز ربما لندرة أو انعدام تطبيق شرح الله في هذه الجريمة، وإني أدعو إلى أن تؤخذ الأمور من المحاكم الشرعية بحزم تجاه هذه الكبيرة، وتطبيق شرع الله، وهو رحمة للفاعل، ورحمة للمجتمع. وهنا إشارات:

-لا رافة في حال تطبيق الحد ردعاً للغير، (وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ).
-أن يكون ذلك بحضور الناس، (وَلْيَشْهَدْ عَذَابُهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ)؛ ليشهدوا ذلك ولما له من الأثر المجتمعي في قمع الرذيلة، وعدم السير خلفها.

٢. أن يبني المجتمع بناء إسلامياً واضح المعالم، فالمحرم محرّم والجريمة جريمة والكف مكلف، ولا تأخذنا الاتفاقيات والمعاهدات بعيداً عن نور الشريعة وأحكام الإسلام لتلقي بنا في مهاوي الردى. فمن المهم أن يؤطر المجتمع تأطيراً إسلامياً منضبطاً بأحكام الشريعة. ومن ذلك أن يكون النظر إلى البالغ على أنه مراهق مدعاة لتأخير سن النضج في نظر المجتمع للفتيان والفتيات، ويهون من أخطائهم، ويلتمس لهم الأعذار في مخالفتهم، مع أنهم شرعاً مطالبون بما يطالب به كل إنسان بالغ عاقل، وأما النظرة الشرعية التي تنظر إلى البالغ على أنه بالغ مكلف وتعامله على هذا الأساس، فإنها تساعد على سرعة إنضاج الفتيان والفتيات، وحيث إن المجتمع سوف يتعامل معهم على هذا الأساس^{١٢٤}.

١٨. تنبيهات وإشارات في التعامل مع الأخطاء القائمة والسلوكات الشاذة:

- § (الإخلاص لله.
- § الخطأ من طبيعة البشر.
- § كلما كان الخطأ أعظم كان الاعتناء بتصحيحه أشد.
- § التفريق بين المخطئ الجاهل والمخطئ عن علم.
- § العدل وعدم المحاباة في التنبيه على الأخطاء.
- § الحذر من إصلاح خطأ يؤدي إلى خطأ أكبر.
- § إدراك الطبيعة التي نشأ عنها الخطأ.
- § التفريق بين المجاهر بالخطأ والمستتر به.
- § مراعاة من دينه رقيق ويحتاج إلى تأليف قلب لا يغلظ عليه.

^{١٢٢} "منابع مشكلات الأمة الإسلامية والعالم المعاصر" لمقداد بالجن، ص ١٠٥.
^{١٢٣} "قضية التخلف العلمي والتقني في العالم الإسلامي" لزغول النجار، ص ١٣٧ ص ١٣٨.

^{١٢٤} "نحو تربية إسلامية راشدة" لمحمد شاكر الشريف، ص ١٢٩.

- § التفريق بين من وقع الخطأ منه مراراً وبين من وقع فيه لأول مرة، وكذلك من يتوالى حدوث الخطأ منه، وبين من يقع فيه على فترات متباعدة.
- § الإنكار على المخطئ الصغير بما يتناسب مع سنه.
- § الحذر عند الإنكار على النساء الأجنبية.
- § عدم الانشغال بتصحيح آثار الخطأ وترك معالجة أصل الخطأ وسببه.
- § عدم تضخيم الخطأ والمبالغة في تصويره.
- § ترك التكلف والاعتساف في إثبات الخطأ وتجنب الإصرار على انتزاع الاعتراف من المخطئ بخطئه.
- § إعطاء الوقت الكافي لتصحيح الخطأ خصوصاً لمن درج عليه واعتاده زماناً طويلاً من عمره هذا مع المتابعة والاستمرار في التنبيه والتصحيح.
- § تجنب إشعار المخطئ بأنه خصم ومراعاة أن كسب الأشخاص أهم من كسب المواقف^{١٢٥}.
- § (عدم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والتكاسل في ذلك، ابتداء من الفرد مع نفسه ومع أسرته.
- § الجفوة والغلظة عند النصيحة.
- § المفاهيم المغلوطة، وعدم فهم قواعد الأمر بالمعروف وشروطه وآدابه.
- § الشدة في الإنكار على وجه الدوام.
- § مفهوم أن الإنكار للعلماء فقط.
- § السلبية تجاه المنكرات، وتبليد الإحساس.
- § اعتقاد ضرورة الحصول على نتيجة.
- § الإنكار بلا علم ولا معرفة^{١٢٦}.

خاتمة..

وختاماً ليعلم المؤمن أن مجاهدة النفس عبادة يتقرب بها إلى الله تستمر معه حتى يقضي هذه الحياة، فليجعل الغاية الكبرى (عبادة الله) نصب عينيه وحتى لو أصابته سهام الأعداء فليمت في طريقه لهذه الغاية ولا ينكفي بنفسه وترعده صولاتهم وخيلهم ورجلهم، وأقول للدعاة الفضلاء والمربين العظماء أن جودوا بما منّ الله عليكم به من فضل ونعمة للمسلمين، وأن تؤدوا ما عليكم وخاصة في تحصين الناس وبناء علاقاتهم مع الله، فلن يهزم جمعكم وسيولي غيركم الدبر ما دمتم تعملون بجد وإخلاص. أسأل الله أن يحفظ المسلمين من كيد الشياطين وخطط المتربصين، وأن يهدينا بمنه وكرمه لهداه.

وكتبه سعيد بن محمد آل ثابت

Thabit66@gmail.com

<http://twitter.com/#!/althabit>

^{١٢٥} "الأساليب النبوية في التعامل مع أخطاء الناس" لمحمد صالح المنجد، ص ٩ ص ٢٦.

^{١٢٦} "حديث من رأى منك منكرًا" لفالح الصغير، ص ٧٦.